نصفة المخالف

الزمخشري أنموذجاً

إعداد الأستاذ الدكتور

أنور إبراهيم منصور

أستاذ التفسير وعلوم القرآن الكريم

بجامعتي الأزهر والبحرين

نصفة المخالف
الزمخشري أنموذجاً

أنور إبراهيم منصور
قسم: التفسير وعلوم القرآن، الكلية: أصول الدين، جامعة البحرين ، مملكة البحرين
البريد الإلكتروني: anwrmansour@gmail.com

ملخص البحث:

لا يخفى على مَنْ له صلة بالدراسات القرآنية تأثر المفسر بثقافته وانتمائه المذهبي؛ فقد اتخذ البعض من التفسير القرآني ميدانًا لنصرة المذهب والترويج له، ولو أدى ذلك إلى ليِّ عنق الآيات، والخروج بها إلى معنى بعيد غير مراد.

لقد كانت نصرة المذهب أهم الأسباب الدافعة لبعض المفسرين إلى التصنيف، وظهر في تفاسيرهم بصورة واضحة كيف كانت أصول المذهب هي الأصل؟ أما فهم وتفسير القرآن فهو تابع لهذا الأصل وسائر معه، وبلغ من تعصبهم أنهم كانوا حريصين على النيل ممن خالفهم لأدنى مناسبة، ووصفهم بصفات تخرجهم من الملة.

وكان للزمخشري صاحب الكشاف الحظ الأوفى والنصيب الأوفر في نصرة مذهبه الاعتزالي؛ صنف لأجله التفسير، ولم يترك فرصة تمكنه من مخالفيه والنيل منهم إلا شنَّ عليهم حملات قاسية، فلم يسلموا منه في تفسيره، ولم يسلم هو منهم من ردهم وتعقبهم له.

وقد اهتم الباحثون بجانب تعقب المفسرين بعضهم لبعض، وتهوين بعضهم قول بعض، وإعلائهم لشأن جماعتهم على غيرهم ممن خالفهم، حتى لَيُخيل للقارئ انعدام جواب الإنصاف، وغض الطرف عن المحاسن والمزايا.

إن هذا البحث يتناول جوانب الإنصاف للمخالفين، واخترت الزمخشري أنموذجا، وتتبعت موقف مخالفيه منه وامتداحهم وإنصافهم له، والثناء عليه بأبلغ عبارة، وقسمته إلى مبحثين: خصصت أولهما للحديث عن الزمخشري في عيون مخالفيه من أهل السنة، وقصرت الثاني لبيان موقف ابن المنير في حاشيته من الزمخشري.

وانتهى البحث إلى ضرورة العناية بجوانب الإنصاف عند المفسرين القدماء، وإبرازها جنبًا إلى جنب مع وجه الخلاف، كما يوصي البحث بنبذ التعصب المذهبي لما له من آثار غير محمودة في الفكر والسلوك.

الكلمات المفتاحية: الزمخشري، المخالف، إنصاف، ابن المنير، الكشاف.

Justice for the violator
El Zamakhshary for example

Anwar Ibrahim Mansour
Quranic Exegesis Department, Osol el deen faculty, Al Bahreen university, The Kingdom of Bahreen
anwrmansour@gmail.com

Abstract

It is no secret to those who are connected with Quranic studies that the interpreter is influenced by his culture and sectarian affiliation. Some have taken Qur'anic interpretation as a field to support and promote the doctrine. Even if this leads to distorting the meaning in a manner consistent with belief and far from its intended meaning Supporting the doctrine was the most important reason driving some commentators to classify it, and it clearly appeared in their interpretations: What were the origins of the doctrine? As for understanding and interpreting the Qur'an, it follows this principle. Their fanaticism led to their eagerness to win over those who disagreed with them in the slightest, and described them with characteristics that would take them out of the religion. Al-Zamakhshari, the owner of Al-Kashshaf, had the best luck in supporting his Mu'tazila doctrine. Classified for the sake of interpretation, He did not give up any opportunity to attack his opponents and attack them without launching harsh campaigns against them. They were not spared from him in his interpretation, and he was not spared from their rejection and pursuit of him. The researchers were interested in tracking down the commentators one by one. This research deals with aspects of justice for violators, and I chose Al-Zamakhshari as a model. I followed the position of his opponents towards him and their praise and fairness to him. And praise him in the most eloquent terms, I divided it into two sections: I devoted the first to talking about Al-Zamakhshari in the eyes of his Sunni opponents, and the second to clarify the position of Ibn Al-Munir in his commentary on Al-Zamakhshari. The research concluded with the need to pay attention to the forms of fairness according to ancient interpreters. highlighting it alongside the face of the dispute, The research also recommends rejecting sectarian fanaticism because of its negative effects on thought and behavior.

Keywords: Al-Zamakhshari, Al-Mukhtalaf, Justice, Ibn Al-Munir, Al-Kashshaf

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن سار على نهجه إلى يوم الدين. وبعد:

فمن الحقائق اللافتة للنظر في كتب التفسير: تأثير ثقافة المفسر وانتماءاته المذهبية على تفسيره، ودخول أكثر المفسرين إلى ميدان التفسير بأفكار ومبادئ مقررة لديهم مسبقاً، والبحث في القرآن عن ما يؤيد هذا الآراء المذهبية والأصول الاعتقادية، وتسخير التفسير القرآني لخدمة المذهب، وقد وجدنا لكل مذهب تفسيراً أو عدة تفاسير، مهمتها تأييد المذهب وتقويته في نفوس معتنقيه من جهة، وتضعيف أو دحض آراء المخالفين من ناحية أخرى، ولا مانع من التقليل من شأنهم، ووصفهم بما ينفر الناس عنهم إذا دعت الحاجة لذلك.

أما عن حرص المذاهب والفرق على تأييد المذهب فليس عيباً قادحاً إذا كانت الآية أو الآيات محتملة لهذا الرأي، وإذا سلك المفسر الطريق الصحيح، وكان مستمسكًا بالقواعد والأدوات التي اشترطها علماء التنزيل في الفهم والاستنباط.

فأما إذا خرج المفسر عن جادة الطريق، وركب مركب الشطط، وتعسف في التأويل، بما لا يحتمله النص القرآني بغية نصرة المذهب، فهذا هو الإجحاف وموطن الخلاف، ومن معايبه: ترك الإنصاف ولو كان بادياً للعيان، وإثارة الخلاف فيما لا يحتمل الخلاف، مما يؤدي إلى إشغال الناس بما لا طائل من ورائه، ولا

فائدة من ذكره، وحشو كتب التفسير بشواغل صارفة عن هدايات القرآن(١).

وهذه الورقة العلمية ناظرة إلى الجانب المشرق من الخلاف، وهو الجانب الذي يُنصف فيه المفسر مخالفه من نفسه، ويقرُّ له بالفضل، ويعترف بما له من سبق.

وقد اخترت حاشية أحمد بن المنِّير(٢)، ليكون لها الحظ الأوفى من البحث، وهي حاشية على تفسير الزمخشري المفاخر باعتزاله، والذي كان حريصاً في تفسيره على نصرة المذهب الاعتزالي وتأييده، ولم يترك مناسبة–أو من غير مناسبة– للنيل من مخالفيه، والتعريض بهم بعبارات قاسية، مما جعل ابن المنير يتصدى للرد عليه، والقيام بواجب الدفاع عن الاعتقاد الصحيح، وتتبعه في مواطن نقده، والنيل منه متى ساعده المقام، والكيل له بنفس مكياله.

وكان قاسيًا في رده وتعقيباته أحيانًا، غير أنه كان في بعض المواضع: لطيف العبارة، عفَّ اللسان، يسوق عبارات الثناء والإطراء، يصل في ثنائه حد الإعجاب والمدح، ولا أبالغ إن قلت مستبقاً: إن جوانب الإنصاف وعبارات

(١) خذ عندك مثالاً نقله صاحب المنار في تفسيره، عند حديثه عن الخلاف بين المعتزلة والأشاعرة في مسألة المفاضلة بين الملائكة والأنبياء، وهي مسألة خلافية بين أصحاب المذاهب الكلامية، نُقلت إلى ساحة التفسير القرآني، فبعد أن ساق المسألة وما تمسك به كل فريق قال: والمنصف يرى أن التفاضل في هذا من الرجم بالغيب، إذ لا يعلم إلا بنص من الشارع، ولا نص، وليس للخلاف في هذه المسألة فائدة في إيمان ولا عمل، ولكنه من توسيع مسافة التفرق بالمراء والجدل (تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) لمحمد رشيد رضا ٧٩/٦–٨٠ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب١٩٩٠م).

(٢) ناصر الدين أحمد بن محمد بن منصور الاسكندري المالكي، قاضي قضاة الإسكندرية، والمشهور بأبي العباس ابن المنير، المتوفي سنة ثلاث وثمانين وستمائة، وكان قاضيا منصفا ذكيا قوي الحجة، من أشهر من ناقشوا الزمخشري في مسائل الاعتزال. (شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي ٦٦٦/٧ ط دار ابن كثير، دمشق – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦ م)

الإعجاب للزمخشري في حاشية ابن المنير تُغطي- أو قاربت- على هذه الانتقادات اللاذعة، رغم ما بينهما من خلاف.

وهذا ما سنعتني به ونظهره بدلائله من خلال هذه الورقة العلمية التي وسمتها بـ: نصفة(١) المخالف الزمخشري أنموذجاً.

الدراسات السابقة:

فتشت في البحوث والدراسات العلمية فلم أقف على عمل تناول هذا الجانب، أو خصصه بمبحث في كتاب.

منهج البحث وخطته:

التزمت في هذا العمل بالقواعد العلمية المتعارف عليها، وانتهجت المنهجين التحليلي والاستنباطي بغية الوصول إلى نتائج علمية سديدة، آمل أن تضيف جديدًا في حقل الدراسات القرآنية.

وقد نظمته في مبحثين: خصصت أولهما للحديث عن الزمخشري في عيون مخالفيه من أهل السنة، وقصرت الثاني على بيان موقف ابن المنير في حاشيته من الزمخشري.

وأسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، وأن يرزقني فيه الإخلاص والقبول، إنه حسبي ونعم الوكيل.

---

(١) النَّصَفُ والنَّصَفَةُ والإِنْصَاف: إِعْطَاءُ الْحَقِّ، والنَّصَفَة: اسْمُ الإِنْصَاف، وَتَفْسِيرُهُ أَن تُعْطِيَهُ مِنْ نَفْسِكَ النَّصَف أَي تُعْطيه مِنَ الْحَقِّ كَالَّذِي تَسْتَحِقُّ لِنَفْسِكَ. وفي المصباح: أَنْصَفْتُ الرَّجُلَ إِنْصَافًا عَامَلْتُهُ بِالْعَدْلِ وَالْقِسْطِ وَالِاسْمُ النَّصَفَةُ بِفَتْحَتَيْنِ لِأَنَّكَ أَعْطَيْتَهُ مِنْ الْحَقِّ مَا تَسْتَحِقُّهُ لِنَفْسِكَ وَتَنَاصَفَ الْقَوْمُ أَنْصَفَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا (المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للفيومي ٢/ ٦٠٨ ط المكتبة العلمية بيروت)

المبحث الأول

بين الزمخشري ومخالفيه

ويحتوي على مطلبين:

المطلب الأول: صلة الزمخشري بأهل السنة وموقفه منهم.

المطلب الثاني: الزمخشري وكشافه في عيون مخالفيه من علماء أهل السنة.

المطلب الأول

صلة الزمخشري بأهل السنة وموقفه منهم

الزمخشري سني المأخذ:

من يتابع الزمخشري في نشأته يراه قد اطلع على تراث أهل السنة وتغذى عليه، فهو ممن أخذوا عن السني عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) علمه ونظرياته، وقام بتطبيقها في تفسير على وجه تميَّز به، فلعبد القاهر التقعيد والتنظير، وللزمخشري التنفيذ والتطبيق، وقد أجاد في العرض والتطبيق إجادة رفعته إلى الصفوة من العلماء، وحظي تفسيره بالاهتمام والانتشار، والعناية به ممن خالفه الرأي والاعتقاد من أهل السنة، فكتبوا عليه الحواشي، ومن لم يهمه الحواشي كان ذكر الزمخشري والتنويه بفضله وبمكانته في تفسيره حاضرًا.

لقد استوعب الزمخشري كل ما كتبه عبد القاهر في "الأسرار" و"الدلائل"، وطبَّقه تطبيقًا دقيقًا على أي الذكر الحكيم، وكأنه لم يترك صغيرة ولا كبيرة من آراء عبد القاهر إلا ساق عليها الأمثلة النيِّرة من القرآن الكريم، ولم يقف عند ذلك؛ فقد مضى يتم هذه الآراء مضيفًا إليها من حسه المرهف وعقله الثاقب، وخاصة في مباحث المعاني والبيان، التي أكمل كثيرًا من شعبها ودقائقها ومقاييسها إكمالاً سديدًا(١).

يقول الدكتور محمد أبو موسي في بيان الصلة بين الزمخشري وعبد القاهر ودور الزمخشري في تأصيل فكر عبد القاهر:

"مما يعطي أهمية لتطبيقات الزمخشري لبعض الأصول البلاغية ويعطيها أهمية وأصالة أن هذه الأصول البلاغية التي قررها عبد القاهر كانت كأنها منكرة أو قلقة بين معاصريه، ولذلك كان يشكو كثيرًا من جهل الناس بما يقول، وعجزهم

(١) البلاغة تطور وتاريخ. د. شوقي ضيف. ص ٢٤٣، ط: دار المعارف، ط: التاسعة، بتصرف يسير.

عن استيعابه وتمثله، فأتاحت تطبيقات الزمخشري لها قوة ومكانة، وثبتتها في البيئة العلمية، وأظهرت قدرتها على تحديد المزايا البلاغية لأسلوب القرآن في صورة دقيقة وشاملة، وارتضتها فرقة المعتزلة التي تناوئ شيعة عبد القاهر وتصاولها، فكان ذلك تأصيلاً لهذه الأصول أي تأصيل"(١).

إن ما أتى به الزمخشري في كشافه امتداد لما جاء به عبد القاهر من نظريات وأصول وقواعد، سبق إليها عبد القاهر نظرياً، وقيض الله لها مَنْ على غير المذهب السني وهو الزمخشري المعتزلي فهضمها وبسطها وأضاف إليها ما يجليها، وبهذا يكون المعين واحداً، والمشرب متحداً بين الزمخشري ومناوئيه من بعد عبد القاهر، ولولا إسرافه في تقرير أصول المعتزلة ومبادئها لعُدَّ الزمخشري من أتباع عبد القاهر فكرًا ومذهبًا، ولكان لكتابه شأن أكبر مما هو عليه.

وإذا قررنا أن الزمخشري تربى على مائدة عبد القاهر ونهل من نظرياته، وتفسيره الكشاف تطبيق عملي لنظريات عبد القاهر، إذا تقرر ذلك فليس معناه تجريد الزمخشري من الفضل والسبق! فمما يحسب للزمخشري قوة عرضه وحسن توظيفه وتطبيقه، إضافة إلى ما انفرد به الزمخشري من أصول بلاغية لم يتطرق إليها عبد القاهر.

وخلاصة ما أريد قوله: أن الزمخشري قد أفاد من نظريات عبد القاهرة إفادة كبيرة، ولولاه لما تحققت هذه النظريات وانتشرت كل هذا الانتشار، فلكلٍ فضلٌ على صاحبه.

---

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ص ٦ نشر مكتبة وهبة ط الثانية ١٤٠٨هـ. ١٩٨٨م. يرى د. شوقي ضيف أن عبد القاهر قد سار في نظرية النظم على ضوء ما أتى به القاضي عبد الجبار المعتزلي، فقد كان يرد الإعجاز إلى الفصاحة، غير أنه وسع دلالتها لتساوي فكرة النظم أو كما نقول الآن فكرة الأسلوب، وعلى ضوء آرائه فسَّر عبد القاهر الجرجاني الأشعري نظرية النظم في كتابه دلائل الإعجاز. (البلاغة تطور وتاريخ. د. شوقي ضيف، ص ٢٢٠)

موقف الزمخشري من مخالفيه من أهل السنة:

الزمخشري معتزلي شديد التعصب للمذهب، سخر تفسيره للترويج للمذهب الاعتزالي والمنافحة عنه والغض من قيمة مخالفيه، وكان يفاخر بذلك ويحب الوصف به، ولقد بلغ من شدة تعصبه أنه كان إذا قصد صاحبًا له واستأذن عليه في الدخول يقول لمن يأخذ الإذن: قل له أبو القاسم المعتزلي بالباب(١)، وقد وصفه الذهبي في التذكرة بشيخ العربية والاعتزال(٢).

وله في تقرير المذهب مسالك منها:

المبالغة في نصرة المذهب:

وذلك بذكر أصول المذهب وسوق الأدلة الداعمة والمقررة له، سواء أكان المقام مناسبًا أم غير مناسب، ولم يترك الزمخشري موقفاً يستطيع من خلاله تقوية المذهب، ولو أدى ذلك إلى لي عنق النص وتأويله ليتسق مع مراده، وهو بذلك يجعل المذهب هو الأصل، ومِنْ بعده يأتي النظر إلى النص وتأويله حسب ما يتفق مع أصول المذهب وقواعده المقررة.

يقول د. الجويني في بيانه لغلبة النزعة الاعتزالية على الزمخشري في تفسيره: يقف الزمخشري أمام ظاهر بعض الآي التي يناصر معناها القريب المكشوف آراء المعتزلة ومبادئها فيجعلها محكمة، وتلك التي يخالف ظاهرها أصول الاعتزال يجعلها متشابهة، ثم يحاول بفنون محاولات أن يلين معنى تلك

(١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان ٢٥٥/٤ ط دار صادر بيروت ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م حققه إحسان عباس.

(٢) تذكرة الحفاظ، ٥٤/٤، ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط الأولى ١٤١٩هـ .١٩٩٨م.

الآية المتشابهة لتطوع للاعتزال وتنصر مبادئه، وهو بهذا يدير معني الآي القرآنية كلها حول الاعتزال(١).

وهذه الناحية إن عدت من سيئات الزمخشري عند قوم فهي من الوجهة العلمية الخالصة تنم عن أصالة ورسوخ قدم في البحث الكلامي، فقد عرف الزمخشري-كما يقول د. الجويني- كيف يسخر ملكاته في خدمة مذهبه والانتصار له؟

وإن من الإنصاف أن نقول: إن ما يعاب على الزمخشري هو عين ما فعله أصحاب المذاهب الأخرى، ومنهم بعض أهل السنة الذين جعلوا من القرآن ميدانًا لنشر المذهب وتأييده، وتفسير الآيات القرآنية وفق مذهب المفسر ومعتقده مسألة ظاهرة للعيان، يدركها ويقرُّ بها كلُ مشتغل بالدراسات القرآنية.

وإذا كان الزمخشري قد تأثر في تفسيره بعقيدته الاعتزالية فمال بالألفاظ القرآنية إلى المعاني التي تشهد لمذهبه، أو تأوَّلها بحيث لا يتنافى معه على الأقل، فإنه في محاولاته هذه قد برهن بحق-كما يقول الذهبي(٢)- على براعته وقوة ذهنه، وصوَّر لنا مقدار ما كان من التأثر بين التفسير وهوى العقيدة، وما كان لنا بعد هذا كله أن نغض الطرف عن هذا التفسير.. وبخاصة بعد ما هو ثابت وواقع من ثناء كثير من علماء أهل السُّنَّة عليه.. واعتماد معظم مفسِّريهم عليه وأخذهم منه.

تطاوله على مخالفيه من أهل السنة:

من أساليبه في تقرير المذهب: أنه كثيرًا ما كان يتطاول على أهل السنة، ويحتد في النيل منهم، ولم يترك موضعًا يمكِّنه من شن حملاته على أهل السنة إلا شنَّع بهم، ووصفهم بكل وصف، فهم عنده: المبطلة، والمجبرة، ويجمع بين هذا

(١) منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه. د. مصطفى الصاوي الجويني، ص ٢٨١، ط دار المعارف ط: الثانية، بدون.

(٢) التفسير والمفسرون. محمد حسين الذهبي ٣١٣/١، مكتبة وهبة القاهرة. بتصرف يسير.

الوصف والدعاء عليهم بالخزي فيقول: كمذهب المجبرة أخزاهم الله، ويصفهم بالفئة الخاسئة(١)، إلى غير ذلك مما كثر ذكره في كشافه، ولا أرى فائدة في بسطه.

وفي مقابل ذلك لا يترك مناسبة يمكنه فيها رفع شأن أصحابه والثناء عليهم إلا فعل، فهو من جهة ينتقص من قيمة مخالفيه، ومن جهة أخرى يُعلي من شأن علماء المذهب ويثني عليهم ثناءً عاطرًا.

فبعد إيراده لقول عمرو بن عبيد(٢) يترحم عليه ويتبعه بقوله: فلله درّه أي أسد فرّاس كان بين ثوبيه، يدق الظلمة بإنكاره، ويقصع أهل الأهواء والبدع باحتجاجه(٣).

وفيه أيضًا يقول بعد استحسانه قراءته: وكان عمرو بن عبيد من أفصح الناس وأنصحهم(٤).

وإذا كان المجيء بشواهد من الكتاب على تطاوله مما قد يطيل المقام، فهناك في التفسير ما لا يمكن للباحث إغفاله، ومنه ما قاله عن مخالفيه من أهل

---

(١) راجع: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (٤٨١/٢) (٥٥٠/٢) (٦٨٥/٢) (٥٨٦/١) (٤٦٦/٢) (٤٨١/٢) ط دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧هـ.

(٢) عمرو بن عبيد أبو عثمان البصري، القدري، كبير المعتزلة وأولهم، له كتاب (العدل)، (والتوحيد)، وكتاب (الرد على القدرية)، يريد السنة. مات بطريق مكة، سنة ثلاث. وقيل: سنة أربع وأربعين ومائة (سير أعلام النبلاء لشمس الدين الذهبي ١٠٤/٦ ط مؤسسة الرسالة الطبعة الثالثة ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م).

(٣) الكشاف (٤/ ٧٤٨-٧٤٩)

(٤) الكشاف: ٧٢٥/٢ وقد كشف ابن المنير في الحاشية سبب الثناء بقوله: الزمخشري لا يفوته الثناء على رأس البدعة ومعدن الفتنة؛ فإن عمرو بن عبيد أول مصمم على إنكار القدر وهلم جرا إلى سائر البدع الاعتزالية ، فمن ثم أثنى عليه.

السنة في آية الرؤية(١)، فقد فاق في عصبيته كل حد، وجاء فيها بما يفوق الوصف!.

وبين يديك قوله: تعجب من المتسمين بالإسلام، المتسمين بأهل السنة والجماعة، كيف اتخذوا هذه العظيمة مذهبا؟ ولا يغرنك تسترهم بالبلكفة، فإنه من منصوبات أشياخهم!.

والقول ما قال بعض العدلية -يعني المعتزلة- فيهم:

لَجَمَاعةٌ سموا هواهم سنّة ∴ وجَماعة حُمْرٌ لَعَمْرِي مُوكَفَهْ

قد شبّهوه بخلقه وتخوّفوا ∴ شَنْعَ الوَرَى فتستّروا بِالْبَلْكَفَهْ

فشبههم بالحمر موضوع عليها الإكاف، والمراد بالبلكفة: قولهم يرى بلا كيف.

وقد دفع ذلك ابن المنير إلى مبادلته الهجاء بمثله بقوله:

وقد انتقل الزمخشري في هذا الفصل إلى ما تسمعه من هجاء أهل السنة. ولولا الاستناد بحسان بن ثابت الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ وشاعره، والمنافح عنه وروح القدس معه، لقلنا لهؤلاء المتلقبين بالعدلية وبالناجين سلامًا، ولكن كما نافح حسان عن رسول الله ﷺ أعداءه، فنحن ننافح عن أصحاب سنة رسول الله ﷺ أعداءهم فنقول:

وجماعة كفروا برؤية ربهم ∴ حقاً ووعد الله ما لن يخلفه

وتلقبوا عدلية قلنا أجل ∴ عدلوا بربهم فحسبهمو سفه

وتلقبوا الناجين كلا إنهم ∴ إن لم يكونوا في لظى فعلى شفه(٢)

هذه المساجلة توقفنا على ما وصل إليه الحال بين الفريقين من التطاول في ميدان التفسير القرآني.

---

(١) قوله تعالى وَلَمَّا جاءَ مُوسى لِمِيقاتِنا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قالَ لَنْ تَرانِي .....الآية الأعراف: ١٤٣

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٢/ ١٥٦)

أما الشاهد الآخر الذي لا يقل شأنا –في رأي–عن الأول فهو ما قاله في تفسيره لقوله تعالى: {لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ} يونس:٢٦ فبعد إيراده لعدد من الأقوال في المراد بالزيادة قال: وزعمت المشبهة والمجبرة أن الزيادة النظر إلى وجه الله تعالى وجاءت بحديث مرقوع(١)، إذا دخل أهل الجنة نودوا أن يا أهل الجنة فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً هو أحب إليهم منه(٢).

وهو يريد بقوله: وزعمت المشبهة والمجبرة: أهل السنة القائلين بأن الزيادة هي: النظر إلى وجه الله الكريم، ويقولون بجواز رؤيته تبارك وتعالى في الآخرة.

وقد تعقبه في عبارته هذه ابن المنير وبيَّن أن عصبيته لمذهبه الاعتزالي كانت غالبة، وقد دفعته إلى رفض ما صحَّ من الروايات، ولم ينس ابن المنير أن يرد له الصاع بمثله، وكما عرَّض الزمخشري بأهل السنة وانتقص منهم قابله ابن المنير بمثله، مما أدى إلى تحميل الآية ما لا تحتمل، وجعل تفسيرها ساحة للنزال والانتصار للمذهب.

قال أحمد: نسبة تفسير الزيادة برؤية الله تعالى إلى زعم أهل السنة الملقبين عنده بالمشبهة والمجبرة مرور على ديدنه المعروف في التكذيب بما لم يحط به علمًا، وهذا التفسير مستفيض منقول عن جملة الصحابة، والحديث المروي فيه مدون في الصحاح متفق على صحته، وقد جعل أهل السنة جاءوا به من عند أنفسهم، ومن قبل قال المصرون على الكفر لسيد البشر وصاحب السنة: ائت بقرآن غير هذا أو بدله، حملًا له على أنه جاء به من عنده، فلأهل السنة إذاً أسوة بصاحبها، ولقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة، فابتلاء الحق بالباطل قديم، والله الموفق.

---

(١) مرقوع بالقاف يعني أنهم افتروه من عند أنفسهم.

(٢) الكشاف (٢/ ٣٤٢) والحديث في صحيح مسلم. كتاب الإيمان باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى ١/١٦٣، ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط الأولى ١٤١٢هـ ١٩٩١م، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

المطلب الثاني

الزمخشري وكشافه في عيون مخالفيه من علماء أهل السنة

تباينت الأقوال في الزمخشري وتفسيره، فبسبب إسرافه في تقرير أصول الاعتزال، ظهرت الدعوة إلى الانكفاف عن تفسيره وهجره والبعد عنه، وهي دعوة من أعلام وقامات علمية سنية، أمثال: السبكي، وابن تيمية، وغيرهم، ومتكأ هذه الدعوة أن الزمخشري قد حشا تفسيره بأصول الاعتزال حشوًا يدق من خفاه على اللبيب الفطن، وليس بمقدور من لم تكن له دراية ودربة بمزالق الزمخشري ومسالكه في تقرير المسائل أن يقف على اعتزالياته في التفسير.

قال فيه صاحب كشف الظنون: فتراه مشحونا بالاعتزاليات الظاهرة، التي تتبادر إلى الأفهام، والخفية التي لا تسارع إليها الأوهام. بل لا يهتدي إلى حبائله الأوارد بعد وارد من الأذكياء الحذاق، ولا يتنبه لمكائده الأواحد من فضلاء الآفاق، وهذه آفة عظيمة، ومصيبة جسيمة...(١).

هكذا قضى حاجي خليفة (ت ١٠٦٧هـ) بأن تفسير الكشاف ينطوي على نوعين من مزالق الاعتزال: نوع خفي، وآخر ظاهر جلي، ويصف بأن انطواء الكتاب على هذه الدسائس مصيبة وآفة عظيمة حسب وصفه، وذلك بعد ما أبرز ما امتاز به الكتاب من مزايا وخصال، وأنه: لم ير مثله في تصانيف الأولين، ولم يرو شبيهه في تأليف الآخرين. اتفق على متانة تراكيبه الرشيقة كلمة المهرة المتقنين، واجتمعت على رصانة أساليبه الأنيقة، ألسنة الكملة المفلقين... وكل كتاب بعده في التفسير، ولو فرض أنه لا يخلو عن النقير والقطمير، إذا قيس به،

(١) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ١٤٨٣/٢ مكتبة المثنى – بغداد ١٩٤١م.

لا تكون له تلك الطلاوة، ولا تجد فيه شيئًا من تلك الحلاوة...تداولته أيدي النظار، فاشتهر في الأقطار، كالشمس في وسط النهار(١).

فهذا جمعٌ بين المدح لما احتواه الكتاب من فضائل، وكشفٌ عن بعض ما فيه من آراء بَعُدَ بها صاحبها عن جادة الطريق في رأي من خالفه، وذكر هذين النوعين في محل واحد دليل على الإنصاف.

وإذا رجعنا إلى تأكيد ما أورده الزمخشري في تفسيره من أدلة وتلميحات مناصرة لمذهبه الاعتزالي قلنا: إن الزمخشري أحياناً ما يكون واضحًا وصريحًا في التعبير عن مذهبه والانتصار له، وذم المخالفين والانتقاص منهم، وأحياناً أخرى – لتملكه ناصية البيان– يعبر بألفاظ لا يدركها ولا يقف على كنهها ومدلولها إلا الراسخون في العلم، وقد أوتي الزمخشري قدرة فائقة على دسَّ أصول الاعتزال في كشافه بشكل يدق على أصحاب النظر القاصر من أولي العلم، فضلاً عن المبتدئين أو العوام، من هنا كان الرأي فيه: منع العوام من قراءته خوفاً عليهم من الافتتان به، والاغترار بما ضمنه تفسيره. وهذا ما عناه تاج الدين السبكي الأشعري(ت ٧٧١هـ) حين قال(٢): والقول عندنا فيه . أي في كتاب الزمخشري أنه لا ينبغي أن يسمح بالنظر فيه إلا لمن صار على منهاج السنة لا تزحزحه شبهات القدرية.

ويأتي في هذا الاتجاه المقولة الذائعة التي نقلها السيوطي (ت ٩١١هـ)(٣)

---

(١) السابق. نفس الموضع.

(٢) معيد النعم ومبيد النقم ١١٠ ط مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت – لبنان ط الأولى ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٦ م

(٣) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١٩٠/١ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

عن البلقيني(١) وهو يصور ما دسَّه الزمخشري في تفسيره، وقدرته على إخفائه بقوله:

"استخرجت من الكشاف اعتزالاً بالمناقيش من قوله تعالى: {فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ}[آل عمران: ١٨٥] في إشارة منه لما قاله الزمخشري في تقرير عدم الرؤية في قوله: فَقَدْ فازَ فقد حصل له الفوز المطلق المتناول لكل ما يفاز به، ولا غاية للفوز وراء النجاة من سخط الله والعذاب السرمد، ونيل رضوان الله والنعيم المخلد. اللهم وفقنا لما ندرك به عندك الفوز في المآب(٢).

والعبارة في ظاهرها قد لا تحتمل أي لبس(٣)، وربما يقولها من ينتسب إلى أهل السنة فلا يُعارض، لكن سوابق الزمخشري دفعت إلى التعقيب والتأمل في كل

(١) سراج الدين أبو حفص عمر بن رسلان بن نصير بن صالح الكناني، مجتهد عصره، وعالم المئة الثامنة. ولد سنة أربع وعشرين وسبعمائة له تصانيف في الفقه والحديث والتفسير. مات في عاشر ذي القعدة سنة خمس وثمانمائة. (حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة. جلال الدين السيوطي ٣٢٩/١، ط: دار إحياء الكتب العربية – عيسى البابي الحلبي وشركاه – مصر الطبعة الأولى ١٣٨٧ هـ – ١٩٦٧ م).

(٢) الكشاف ٤٤٩/١.

(٣) والدليل أنها مرت على ابن المنير ولم يعقب عليها بشيء، واكتفى بالثناء عليه في خروجه عن معتقد المعتزلة في جحودهم ونكرانهم لعذاب القبر. جاء في الحاشية: فإن قلت فهذا يوهم نفى ما يروى أن القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار. قلت: كلمة التوفية تزيل هذا الوهم لأن المعنى أن توفية الأجور وتكميلها يكون ذلك اليوم، وما يكون قبل ذلك فبعض الأجور. وأعقبه ابن المنير: قال أحمد: هذا كما ترى صريح في اعتقاده حصول بعضها قبل يوم القيامة، وهو المراد بما يكون في القبر من نعيم وعذاب. ولقد أحسن الزمخشري في مخالفة أصحابه في هذه العقيدة، فإنهم يجحدون عذاب القبر، وها هو قد اعترف به، والله الموفق. (السابق: نفس الموضع)

كلمة، وقياسها والنظر فيها بمعيار الانتساب إلى المعتزلة، ومدى توافقها مع أصولهم التي لم يترك موقفا ولا فرصة لتأكيده ونصرته إلا سلكه.

بل أقول: إن هذا التنقيب والتدقيق لمقولات الزمخشري ليدل دلالة بينة على مكانته ومنزلته التي جعلت المناوئين له –فضلاً عن الموافقين– يشتغلون بعلمه، مما يدل على تمكنه وتأثيره فيهم. ولم يبعد ما قاله السبكي عما قيل قبل؛ فهو يجمع بين الاعتراف بالفضل والكشف عن مواطن الشطط والغلو التي يراه قد اشتط فيها.

يقول في كتابه معيد النِعَم ومبيد النِقَم: واعلم أن الكشاف كتاب عظيم في بابه، ومصنِّفه إمام في فنه، إلا أنه رجل مبتدع متاجر ببدعته، يضع من قدر النبوة كثيرًا، ويسئ أدبه على أهل السُّنَّة والجماعة، والواجب كشط ما في الكشاف من ذلك كله، ولقد كان الشيخ الإمام – يعنى والده تقى الدين السبكي– يقرأه فإذا انتهى إلى كلامه في قوله تعالى في سورة التكوير {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ} أعرض عنه صفحًا، وكتب ورقة حسبة سماها "سبب الانكفاف عن إقراء الكشاف" وقال فيها: قد رأيت كلامه على قوله تعالى: {عَفَا الله عَنكَ} ، وكلامه في سورة التحريم وغير ذلك من الأماكن التي أساء أدبه فيها على خير خلق الله تعالى، سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأعرضتُ عن إقراء كتابه حياءً من النبي ﷺ، مع ما في كتابه من الفوائد والنكت البديعة"(١).

فالسبكي هنا أضاف إلى مجاهرة الزمخشري باعتزاله أموراً أراها جديرة بالملاحظة والاهتمام:

أولها: ثناؤه على الزمخشري ومصنفه، وإقراره بمكانته ومنزلته.

ثانيها: إنصافه ببيان الأسباب الداعية إلى التحذير منه، وملخصها:

١– أنه مجاهر بنصرة مذهبه الاعتزالي.

(١) معيد النعم : ٦٦.

٢- أنه ينتقص من مخالفيه من أهل السنة، ويسئ إليهم.

٣- يضع من قدر النبوة، ويستعمل ألفاظاً قاسية في حق النبي محمدﷺ(١).

ثم ختم بتكرار الثناء على الكتاب وعلى ما حواه من النكات والفوائد، وهذا غاية الإنصاف.

ومما يؤكد إنصافه تصديره لما عاتبه فيه بقوله: لم أزل أسمع دروس الكشاف، وأبحث فيه، ولي فيه غرام؛ لما اشتمل عليه من الفوائد والفضائل التي لم يسبق إليها، والنكت البديعة والدقائق التي تقر العيون عليها، وأتجنب ما فيه من الاعتزال، وأتخرج الكدر وأشرب الصفو الزلال، وفيه ما لا يعجبني(٢).

وقد قصدت من وراء عرض هذا القول الممزوج بالنقد والثناء في آن واحد إثبات وجوه الإنصاف التي تحلى بها العلماء رغم ما بينهما من خلاف، وأؤكد أيضًا على خطأ من يرى وجهًا واحدًا في تفسير الزمخشري، ويسير يعمل على تأكيد رأيه ويتناسى أو ينسى ما للكتاب من فضل شهد به المخالف والموافق.

الطيبي(ت ٧٤٣ هـ):

وصف ابن خلدون كتاب الطيبي بقوله: وصل إلينا في هذه العصور تأليف لبعض العراقيين، وهو شرف الدين الطيبى من أهل توريز، من عراق العجم، شرح فيه كتاب الزمخشري هذا، وتَتبَّع ألفاظه، وتَعَرَّض لمذاهبه في الاعتزال بأدلة تُزيفها، وتُبيّن أن البلاغة إنما تقع في الآية على ما يراه أهل السُّنَّة، لا على ما يراه المعتزلة، فأحسن في ذلك ما شاء، مع إمتاعه في سائر فنون البلاغة، وفوق كل ذي علم عليم".

---

(١) ذكر الزمخشري في تفسيره كلامًا عجيبًا حول النبي محمد ﷺ وآيات العتاب، مما يصلح أن يكون بحثاً علمياً.

(٢) نواهد الأبكار وشوارد الأفكار المعروف بحاشية السيوطي على تفسير البيضاوي لجلال الدين السيوطي٣-٥٠١ ط: جامعة أم القرى بالسعودية١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٥ م.

وهذه المقولة كفيلة بالإيعاز بأنك أمام تعقبات لاذعة، وانتقادات لا هوادة فيها، ومصنَف ليس فيه إلا عرض السقطات وتتبع الهفوات، أما ما فيه من المحاسن واللطائف فأمرها يكون ما بين تهوينها أو غض الطرف عنها ما استطاع المصنف إلى ذلك سبيلا، هذا ما تنبيك عنه مقولة ابن خلدون الآنفة.

لكن تعجب حين تطالع الكتاب، وما قاله الطيبي وهو الذي وهو الذي صنف كتابه لتعقب الزمخشري في زلاته، وتزييف أدلته الاعتزالية أقول يعتريك العجب حين تقف على عبارات الثناء والإعجاب والإطراء تتردد بين صفحات الكتاب لتدلك على مدى الإنصاف الذي تمتع به الطيبي.

وأنا هنا أقف مع ما افتتح به كتابه إذ قال: والموفق من العلماء الأعلام، وأنصار ملة الإسلام من كانت مطامح نظره، ومسارح فكره، الجهات التي تضمنت لطائف النكت المكنونة، واشتملت على أسرار المعاني المصونة، فلم يوفق لتصنيف أجمع لتلك الدقائق، وتأليف أنفع لدرك تلك الحقائق، وأكشف للقناع عن وجه إعجاز التنزيل، وأعون في مداحض الكلام على تعاطي التفسير والتأويل إلا الحبر الهمام: أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، شكر الله سعيه؛ إذ مصنفه: "الكشاف عن حقائق التنزيل"، مصنف لا يخفى مقداره، ولا يشق غباره. اتضح بيانه، وأضاء برهانه، وعمت أضواؤه، وانجلت سماؤه، تغرق الأفكار في بحار عباراته، ولا تنتهي الأوهام إلى ساحل إشاراته.... ثم سار يثني على ما بالكتاب من مزايا(١).

وإنك حين تقرأ هذه العبارات ليغلب على ظنك أنك أمام متابع لا ناقد، موافق لا مخالف، إذ رغم ما بينه وبين الزمخشري من خلاف في المذهب لم يمنعه ذلك من نعته بنعوت الكمال، هذا فضلا عن الوقوف معه في بعض المواضع ونصرته

(١) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف) (١/ ٦١٠-٦١١) ط دبي لأولى، ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م

على ابن المنير، حتى ليتوهم من لا دراية عنده بمحل الخلاف أنهما على وفاق، وهذا غاية الإنصاف.

مقالة ابن خلدون(ت ٨٠٨هـ)

عندما تكلم ابن خلدون عن القسم الثاني من التفسير، وهو ما يرجع إلى اللسان من معرفة اللغة والإعراب والبلاغة في تأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب قال : ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفاسير كتاب الكشاف للزمخشري من أهل خوارزم العراق، إلا أن مؤلِّفه من أهل الاعتزال في العقائد، فيأتي بالحِجَاج على مذاهبهم الفاسدة حيث تعرَضُ له في آي القرآن من طرق البلاغة، فصار بذلك للمحققين من أهل السُّنَّة انحراف عنه، وتحذير للجمهور من مكامنه، مع إقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة، وإذا كان الناظر فيه واقفًا مع ذلك على المذاهب السُّنِّية، محسنًا للحجاج عنها، فلا جَرَم إنه مأمون من غوائله، فلتُغتنمْ مطالعتُه لغرابة فنونه في اللسان(١). فتراه يميل إلى الثناء –رغم التحذير– ويدعو إلى اغتنام ما فيه من فرائد وإمتاع.

الفخر الرازي(ت ٦٠٦هـ):

عُرِفَ عن الرازي اطلاعه على حجج خصومه، ودرايته بمسالكهم وشبههم، وكان له اهتمام وعناية بمذهب المعتزلة بصفة عامة، وبالزمخشري وكشافة بصفة خاصة، وقد أثنى عليه المقبلي اليمني(ت ١١٠٨هـ) صاحب كتاب العلم الشامخ بقوله: حاله في كتبه تحرير حجج الخصوم على أبلغ ما يمكنه، وقد صرح هو بذلك في النهاية، وليس كسائر الأشاعرة لا يعرفون مذهب المعتزلة على حقيقته، ولا ينصفونهم فيما عرفوا(٢).

(١) مقدمة ابن خلدون ٥٥٥–٥٥٦ ط دار الفكر، ط الأولى ١٤٠١هـ .١٩٨١م.

(٢) العلم الشامخ في إيثار الحق على الآباء والمشايخ ص ٢١٨ بدون.

والفخر الرازي ممن تناول الزمخشري بالمدح تارة وبالنقد حين ينتصر الزمخشري لمذهب المعتزلة تارة أخرى، فنجده يتعقبه في قوله تعالى:{ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِۚ}(١) بقوله: لقد خاض صاحب (الكشاف) ههنا في التعصب للاعتزال وزعم أن الآية دالة على أن الإسلام هو العدل والتوحيد، وكان ذلك المسكين بعيدًا عن معرفة هذه الأشياء، إلا أنه فضولي كثير الخوض فيما لا يعرف، وزعم أن الآية دلّت على أن من أجاز الرؤية أو ذهب إلى الجبر لم يكن على دين الله الذي هو الإسلام..، فهذا المسكين الذي ما شمَّ رائحة العلم من أين وجد ذلك؟(٢).

وواضح من السياق حملة الرازي عليه، والحط من قيمته، وانتقاده الشديد فيما رآه، وأرى أن وصفه له بالمسكين الذي ما اشتم رائحة العلم مبالغة لا محل لها، وهو الذي أقر بمكانته العالية ومنزلته السامية فقال واصفاً له في تفرده: لا نزاع أنه–يعني الزمخشري– كان في درجة عالية وأبهة عظيمة في علم العربية(٣).

وعلى كل حال إذا تركنا هذا الغلو ورحنا نستقرئ تفسيره ومواقفه الأخرى لرأيناه كثير الذكر للزمخشري، ينعته صراحة بصاحب الكشاف، وقد أجريت استقراءً حول عدد مرات وصفه له بهذا الوصف فقاربت سبعمائة مرة في التفسير، بداية من سورة الفاتحة، وانتهاء بسورة الناس، وأورد اسمه الصريح: الزمخشري إذا نقل عنه من تفسيره أو من كتاب آخر كالمفصل أكثر من سبعين مرة من بداية المقدمة

(١) آل عمران: ١٨

(٢) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير ٧/ ١٧٩ ط دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة الثالثة – ١٤٢٠ هـ

(٣) مناقب الإمام الشافعي لفخر الدين الرازي ص ٢٤٢ تحقيق أحمد حجازي السقا مكتبة الكليات الأزهرية ١٤٠٦هـ–١٩٨٦م

حول التفسير إلى نهاية التفسير، وقد يجمع بين الوصفين فيقول: هذا قول الزمخشري في الكشاف(١).

وقد أُعجب بما قاله في تفسيره لقوله تعالى: { ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ}(٢) فامتدحه في هذه الآية بقوله: فإن قيل فأي فائدة في قوله وَيُؤْمِنُونَ بِهِ فإن الاشتغال بالتسبيح والتحميد لا يمكن إلا وقد سبق الإيمان بالله؟ قلنا الفائدة فيه ما ذكره صاحب الكشاف، وقد أحسن فيه جداً، فقال: إن المقصود منه التنبه على أن الله تعالى لو كان حاضراً بالعرش لكان حملة العرش والحافون حول العرش يشاهدونه ويعاينونه، ولما كان إيمانهم بوجود الله موجباً للمدح والثناء؛ لأن الإقرار بوجود شيء حاضر مشاهد معاين لا يوجب المدح والثناء، ألا ترى أن الإقرار بوجود الشمس وكونها مضيئة لا يوجب المدح والثناء، فلما ذكر الله تعالى إيمانهم بالله على سبيل الثناء والمدح والتعظيم علم أنهم آمنوا به، بدليل أنهم ما شاهدوه حاضراً جالساً هناك ، ورحم الله صاحب الكشاف فلو لم يحصل في كتابه إلا هذه النكتة لكفاه فخراً وشرفاً(٣).

لقد أعجب الرازي –كغيره– بما استنبطه الزمخشري من الآية، ووصفه بأنه أحسن جداً، وأنه كافيه هذا شرفًا وفخرًا، وفي هذا تأكيد على أن الزمخشري قد أثر في مخالفيه، واستطاع أن يكون جزءًا من ثقافتهم من جهة، ومن جهة أخرى أن الإنصاف لم يمنع الرازي من قولة الحق.

(١) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٤٥)

(٢) سورة غافر: ٧

(٣) مفاتيح الغيب ٢٩/٢٧.

السيرافي(ت٦٩٨هـ)

من جملة العلماء–وهم كثر– الذين عنوا بتلخيص الكشاف: قطب الدين السيرافي، قال صاحب كشف الظنون[١]: لخصه وسماه تقريب التفسير أتمه في التاسع من شوال سنة ثمان وتسعين وستمائة ببلدة شيراز أوله الحمد لله الذي جعل كتابه الكريم مفتاحًا للسرور .. أزال اعتزاله وبعض أطنابه، فهذب ونقح، وضم إلى مواضع الانغلاق حلًا وبيانًا، وهو كتاب صغير الحجم، وجيز النظم، مشتمل على محض الأهم من الكشاف، مع زيادات شريفة.

بدأه السيرافي بالاعتراف بالفضل للزمخشري، وأثني على الكتاب، مبينًا مكانته ونفاسة ما اشتمل عليه بقوله: فإن كتاب الكشاف بيض الله غرة مصنفه، وصبَّ سجال الرحمة على مؤلفه، تفسير لا يخفى مقداره، ولا يشق غباره، عجائبه كثيرة، وغرائبه غزيرة، قد اشتمل على دقائق شريفة، وحقائق لطيفة، يعترف بنفاسته البادي والحاضر، ولا يتفطن لدرك لطائفه كل ناظر....[٢].

التفتازاني (ت ٧٩٢)

كان السعد التفتازاني معارضًا شديد المعارضة للزمخشري وخاصة إذا كانت كلماته – أي الزمخشري– تمس الجوانب الكلامية وتعارض المذهب السني، وقد يخرج التفتازاني عن هدوئه ويكون حاد الكلام متهكمًا بالزمخشري فيصفه بأنه: " لم ينل مسكة من الإنصاف، يهيم في وادي عدله وتوحيده..."، وبقوله: "وهذا بين جلي لمن لم يعمه ولم يصمه حب الرؤية والتعنت في باطلة..."، وقوله: "وهذا بين جلي على صبيان الكتاب، ولكن الأعمى لا يهتدي إلى طريق الصواب .... وغير ذلك مما هو في الحاشية"[٣].

---

(١) كشف الظنون: ١٤٧٥/٢.

(٢) مقدمة تقريب التفسير

(٣) تحقيق الجزء الأول من حاشية العلامة سعد التفتازاني على الكشاف للزمخشري د. عبد الفتاح البربري ص ٨٢ رسالة دكتوراة كلية اللغة العربية جامعة الأزهر ١٣٩٨هـ –١٩٧٨م).

كتب السعد في مقدمة حاشيته سبب تصنيفه فذكر أن كثيرًا من السابقين اتجهوا إلى دراسة الكشاف يكشفون الحجب عن أسراره، والسدف عن أنواره، وأنه دخل في زمرتهم، يستكشف خفايا الكشاف وخباياه، ويدئب في سبيل ذلك ركاب الطلب ومطاياه، ثم طفق يبذل للطالبين ما صادف من مخزون فقره، وينثر على الراغبين ما حصل من مكنون درره...فصرفت الهمة والعزيمة، وأحكمت النية والصريمة، وحللت من الفكر بملتقى طرقه، ومن النظر بمجتمع فرقه، ثم أخذت في نثر فرائده المخزونة، ونشر فوائده المكنونة، وبحت برموزه التي كانت عن الأنظار خفية، وسمحت بكنوزه التي كانت مدى الأعصار خبية، بحيث ينشد ضالته كل طالب عارف، ويعثر على دالته كل ناظر واصف..(١).

أما عن مكانة الزمخشري فيقول:

فإن كتاب الكشاف للشيخ العلامة أحله الله من فضله دار المقامة قد طار صيت جلالة قدره كالأمطار في الأقطار، وصار أمر نباهة ذكره كالأمثال في الأمصار، رمقت نحوه عيون العيون من الأفاضل، ونطقت بفضله كملة الكملة من الأماثل، حتى وصفه بحسن التأليف أطباق الآفاق، ووضعه للطف الترصيف الحذاق على الأحداق، اعترف بسمو محله المعاند والمعادي، ونادى بعلو مرتبته كل واد وناد، يرتاح له أرباب العلم المتين والفضل المبين، وتنزاح به عن وجوه الإعجاز شبه المرتابين، تملأ الروعة منه قلوب الأفاضل وتملك نفوسهم ، ويهز الاستعجاب منه أعطافهم وترقص رؤوسهم(٢).

وبعد:

فهذه بعض صور الإنصاف من علماء السنة، وقد ظهر أن الكل مجمعٌ على أن الزمخشري هو سلطان الطريقة اللُّغوية في تفسير القرآن–على حد تعبير

(١) الحاشية ٦.

(٢) السابق نفس الموضع.

الذهبي(١)- وبها أمكنه أن يكشف عن وجه الإعجاز فيه، ومن أجلها طار كتابه في أقصى المشرق والمغرب، واشتهر في الآفاق، واستمد كل مَن جاء بعده من المفسِّرين من بحره الزاخر، وارتشف من معينه الفيَّاض، واعتنى الأئمة المحققون بالكتابة عليه: فمن مميِّز لما جاء فيه من الاعتزال، ومن مناقش لما أتى فيه من وجوه الإعراب، ومن محش وضَّحَ ونَقَّحَ واستشكل وأجاب، ومن مخرج لأحاديثه عَزَا وأسْنَدَ وصَحَّحَ وأنقد، ومن مختصر لَخَّصَ وأوجز(٢).

هذا.. وإن حظوة الكشاف بهذا التقدير والإعجاب حتى من خصومه، وظفره بهذه الشهرة الواسعة التي أغرت العلماء بالكتابة عليه بمثل هذه الكثرة الوافرة الزاخرة من المؤلفات، لدليل قاطع على أنه تفسير في أعلى القمة....

وإذا كان الزمخشري قد تأثر في تفسيره بعقيدته الاعتزالية فمال بالألفاظ القرآنية إلى المعاني التي تشهد لمذهبه، أو تأوَّلها بحيث لا يتنافى معه على الأقل، فإنه في محاولاته هذه قد برهن بحق على براعته وقوة ذهنه، وصوَّر لنا مقدار ما كان من التأثر بين التفسير وهوى العقيدة، وما كان لنا–والكلام هنا لصاحب التفسير والمفسرون(٣)- بعد هذا كله أن نغض الطرف عن هذا التفسير، تأثراً بمذهبنا السُّنِّي، وكراهة لمذهب المعتزلة، وبخاصة بعد ما هو ثابت وواقع من ثناء كثير من علماء أهل السُّنَّة عليه – فيما عدا ناحيته الاعتزالية – واعتماد معظم مفسِّريهم عليه وأخذهم منه.

فالكشاف – والحق يقال – قد بلغ في نجاحه مبلغاً عظيماً، ليس فقط لأنه لا يمكن الاستغناء عنه في بيان الأقوال الكثيرة لقدماء المعتزلة، بل لأنه استطاع

(١) التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي (١/ ٣١٣).

(٢) مَن يريد الوقوف على كل ما كُتِب على الكشاف يمكنه الرجوع إلى ما كتبه صاحب كشف الظنون ١٤٧٧/٢، وسيراها كثيرة، كثرة يضيق المقام عن ذكرها.

(٣) التفسير والمفسرون١/ ٣١٣.

أيضاً أن يكون معتَرفاً به من الأصدقاء والخصوم على السواء ككتاب أساسي للتفسير، وأن يأخذ طابعاً شعبياً يغرى الكل ويتسع للجميع.

يقول الدكتور محمد أبو شهبة(١): إن تفسير الكشاف من خير كتب التفسير وأجلها، ولولا نزعته الاعتزالية في بعض الآيات القرآنية، لما تناوله المعترضون بالنقد، ولما شنأه بعض الناس، وبحسب هذا الكتاب فضلاً ومنزلة: أن كل من جاء بعد الزمخشري عالة عليه فيما يذكره فيه من أسرار الإعجاز والغوص في المعاني البلاغية الدقيقة.

فهذه شهادات منصفة للزمخشري وكشافه من كتب الأوائل والآواخر، ناطقة بمكانته، وعلو منزلته.

ولا أريد أن أطيل هنا بذكر من اشتط وغالى ووصف صنيع الزمخشري بالشرك وأنه داعية إلى النار أو حامل لواء المعتزلة إلى النار(٢)، فهذه الأقوال وأمثالها ليس لها من الإنصاف حظ ولا نصيب، وغالبا ما يكون وراءها دوافع أخرى لا علاقة لها بالعلم.

وأقول: هذه الأقوال المنصفة دالة على أن المخالفة في المذهب لم تحل بينهم وبين إظهار مكانة الزمخشري والتنويه بفضله، ويكاد النقد ينصرف إلى المسائل العقدية التي فارق فيها مذهب المعتزلة أهل السنة...ومن طعن على الزمخشري أو بالغ في انتقاده إنما كان مقصده الحق.

وكذا الزمخشري في انتصاره لمذهبه في التفسير غير متهم في دينه، وما انتصر للمذهب إلا لأنه يراه الحق ... ولم يكن مراده –والظن بكل علمائنا– أن ينتصر للمذهب مع يقينه بأنه باطل، فالظن بعلمائنا نصرة الحق وطلب رضا الله

(١) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير ص ١٣١ ط مكتبة السنة ط الرابعة بدون.

(٢) الزواجر عن اقتراف الكبائر لابن حجر الهيتمي ١/ ١٦٧ ط دار الفكر الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م

في التفسير، ولا يعقل أن يكون الزمخشري سيء النية والقصد ويوضع لكتابه كل هذا القبول بين الناس!!.

ومما يدل على أن الزمخشري لا يبغي إلا الحق رجوعه عن مذهبه الفقهي وتسامحه مع من يرى خلاف مذهبه، فرغم أنه كان حنفي المذهب إلا أنه نوَّه بفضل ومكانة الشافعي، وحسبنا أن نقول إنه صنف فيه كتابًا.

يقول في تفسير للآية الرابعة من سورة النساء: والذي يحكى عن الشافعي رحمه الله أنه فسر (أَلَّا تَعُولُوا) أن لا تكثر عيالكم، فوجهه أن يجعل من قولك: عال الرجل عياله يعولهم، كقولهم: مانهم يمونهم، إذا أنفق عليهم، لأنّ من كثر عياله لزمه أن يعولهم، وفي ذلك ما يصعب عليه المحافظة على حدود الكسب وحدود الورع وكسب الحال والرزق الطيب. وكلام مثله من أعلام العلم وأئمة الشرع ورؤوس المجتهدين، حقيقي بالحمل على الصحة والسداد، وأن لا يظنّ به تحريف تعيلوا إلى تعولوا، فقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه: لا تظنن بكلمة خرجت من في أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملا(١). وكفى بكتابنا المترجم بكتاب «شافي العىّ من كلام الشافعي» شاهداً بأنه كان أعلى كعبًا وأطول باعًا في علم كلام العرب، من أن يخفى عليه مثل هذا(٢).

وهو القائل في مخالفته لمذهب أبي حنيفة في مسألة التيمم من الصخر الذي لا تراب عليه: والإذعان للحق أحق من المراء(٣).

---

(١) رواه المحاملي في أماليه (أمالي المحاملي – رواية ابن يحيى البيع– للحافظ الحسين بن إسماعيل المحاملي ص ٣٩٥ ط المكتبة الإسلامية دار ابن القيم – عمان – الأردن الدمام الطبعة الأولى ١٤١٢هـ) ونسبه السيوطي إلى الإمام أحمد (الدر المنثور٥٢٥/٧ ط دار الفكر بيروت) وأورده ابن كثير في تفسير القرآن العظيم ٣٥٢/٧ ط دار الكتب العلمية بيروت الطبعة: الأولى – ١٤١٩ هـ

(٢) الكشاف ١/ ٤٦٨–٤٦٩.

(٣) السابق ٥٤٧/١.

وهذا يكشف لنا أن الزمخشري رجَّاع للحق متى تبين له ذلك، أما اتهامه بلي أعناق الآي وتسخيرها لمعتقده الاعتزالي مع يقينه الجازم أنه على باطل فهذا فيه نظر، وأراه بعيدًا عن رجل حظي تفسيره بكل هذا الاهتمام، ووضع له كل هذا القبول في الأرض، وما يزال محط عناية وتقدير منذ صنف إلى يومنا هذا، يتعلم منه الموافق والمخالف، ويقر بنفاسته السابق واللاحق، مع التأكيد على عدم خلوه من بعض الزلات والهنات التي قد تصيب أي عمل بشري، أما الذهاب إلى تعمده تحريف الكلم عن مواضعه، وتأويل القرآن على غير مراد الله منه قصدًا، فهو ما أراه غير لائق ولا مستساغ.

والحقيقية التي نصل إليها مما سبق هي أن الزمخشري لم يسلم من انتقاد وتجريح، وأن من أهل السنة من بالغ في ذمه وانتقاص قدره، وهو ما يثبت خلاف ما ذهب إليه ابن عاشور في أن أهل السنة غضوا الطرف عنه.

لقد أنكر ابن عاشور على الزمخشري أسلوبه وتعامله مع المخالفين معه في المذهب، حيث رماهم – في رأي ابن عاشور– بالجهالة تارة وبالسب والشتم تارة أخرى: يقول:

"على ما يكثر صاحب الكشاف من عنف على مخالفيه وما يتناولهم به خصوصًا أهل السنة والجماعة. من قدح، وشتم، وسب، وتجهيل، فإن ما جبل عليه أهل السنة، وقامت عليه طريقتهم العلمية من الإنصاف، قد حملهم على الإغضاء عن تلك الهفوات المخجلة، والعورات الفاضحة(١).

(١) التفسير ورجاله ص ٧٣.

غير أن ما سقته من أقوال وشواهد تدفع هذا الرأي، وتثبت أنهم بادلوه القدح والسب والتجهيل، وإن هذا الاضطراب في القول(١) عن الزمخشري وكشافه ليجعلك توقن بأن هذه الحملات راجعة إلى الخلافات المذهبية والكلامية.

(١) فمثلاً أبو حيان صاحب التفسير يقسو عليه ويسخر منه ويصفه بأنه أعجمي ضعيف في النحو، ومع ذلك تراه شديد الإعجاب به وبما أوتيه من مهارة فائقة، يقول: وهذا الرجل يعني الزمخشري، وإن كان أوتي من علم القرآن ، أوفر حظ ، وجمع بين اختراع المعنى وبراعة اللفظ . ففي كتابه في التفسير أشياء منتقدة ، وكنت قريباً من تسطير هذه الأحرف قد نظمت قصيداً في شغل الإنسان نفسه بكتاب الله ، واستطردت إلى مدح كتاب الزمخشري ، فذكرت شيئاً من محاسنه ، ثم نبهت على ما فيه مما يجب تجنبه. (البحر المحيط في التفسير لأبي حيان الأندلسي محمد بن يوسف ٢٣٢/٤، ٨١/٧ ط دار الكتب العلمية – لبنان/ بيروت: ١٤٢٢هـ=٢٠٠١ م.

المبحث الثاني
بين ابن المنير والزمخشري

ويتضمن مطلبين:

المطلب الأول: وقفات مع مخالفة ابن المنير للزمخشري

المطلب الثاني: الزمخشري في مرآة ابن المنير

المطلب الأول

وقفات مع مخالفة ابن المنير للزمخشري

حين تقرأ حاشية ابن المنير تراه في مواطن محتدًا مبالغًا، يكيل للزمخشري الصاع بمثله وزيادة، وفي مواطن أخرى تراه معجبا بكلامه، يثني عليه ثناءً يوهمك أنه من أنصار الزمخشري تابع له، وهذا هو الجانب الذي سنهتم بإبرازه، أعني جوانب الإنصاف في حاشية ابن المنير،

وإنما أفردته وخصصته بالبيان لعدة أمور:

أولها: اشتهار حاشية ابن المنير عند علماء التنزيل، والتعويل عليها كمصدر أصيل من مصادر المعرفة عند كثير من الباحثين.

وثاني هذه الأمور: لذيوع فكرة قيام الحاشية على المعارضة للزمخشري، وتنصيب ابن المنير كاشفًا عن زلات الزمخشري، وضرب المثال به في كل مناسبة.

فأغلب من يذكر ابن المنير لا يكاد يذكره إلا في مقام النقد والرد على الزمخشري، ويهتم بهذا الجانب دون غيره، فأردت أن أهتم بالجانب الآخر، أعني جانب الإنصاف والإعجاب، لأظهر أن الزمخشري رغم ما فيه إلا أن عنده من المزايا والصفات الحسنة ما حملت مخالفيه–وعلى رأسهم ابن المنير– على الإقرار بفضله والاعتراف بمكانته.

وثالثها: للبرهنة على أن ما اتُهم به الزمخشري من مخالفيه وعلى رأسهم ابن المنير قد وقعوا فيه، فابن المنير قد سار على طريقة الزمخشري نصرة للمذهب وتعصباً له.

ورابعها: أن احتدام الخلاف بينهما، وغلبة الانتصار للمذهب قد تدفع إلى غض الطرف عن المحاسن والمنافع، فأردت التأكيد على عدم وقوعه.

وأخيـرًا: للتأكيد على أن انتصار الزمخشري لمذهبه لم يكن فيه بدعًا؛ فالمعهود في غالبية مصنفات التفسير تبعيتها للمذهب، وتفسير الآيات تفسيرًا يتوافق معه، والتفاسير المذهبية أكثر من أن تحصى.

وقبل أن ندلف إلى التفصيل والتدليل نبرز هنا سبب تعقب ابن المنير للزمخشري ومخالفته له، ووضعه في ذلك حاشيته المعروفة بـ: الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال، فنقول:

يكاد يلتقي ابن المنير مع الزمخشري ويتفق معه في سبب التوجه لتفسير كتاب الله؛ فقد غلب على كل منهما التوجه إلى كتاب الله طلبًا لتأييد المذهب وتقويته بنشر أصوله، وردّ شبه المخالفين له.

فمن يطالع ما كتبه الزمخشري في مقدمته للتفسير يقف على ذلك صريحًا واضحًا، إذ قال في سبب تصنيفه للكشاف: رأيت إخواننا في الدين من أفاضل الفئة الناجية العدلية الجامعيين بين علم العربية والأصول الدينية كلما رجعوا إليَّ في تفسير آية فأبرزت لهم بعض الحقائق من الحجب أفاضوا في الاستحسان والتعجب، واستطيروا شوقًا إلى منصف يضم أطرافًا من ذلك، حتى اجتمعوا إليَّ مقترحين أن أملي عليهم الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل فاستعفيت، فأبوا إلا المراجعة والاستشفاع بعظماء الدين وعلماء العدل والتوحيد....(١).

ويسوق ابن خَلِّكان(ت ٦٨١هـ)(٢) في هذا المقام أنه عندما بدأ تأليف كشافه استفتح الخطبة بقوله: الحمد لله الذي خلق القرآن، فقيل إنه قيل متى تركته على هذه الهيئة هجره الناس ولا يرغب أحد فيه؟ فغيره بقوله: الحمد لله الذي جعل القرآن.

---

(١) مقدمة تفسير الزمخشري ص ٣.

(٢) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان ٥/١٧٠.

وهذه الرواية التي حكاها لا تسلم من النظر؛ فمثل الزمخشري لم يحتج إلى المواربة، وأصول المذهب الاعتزالي والانتصار له في تفسيره واضحة لا تخفى على أحد.

والقول بأنه حذف أو بدَّل ما كتبه في المقدمة قولٌ بمعزل عن الصواب لوجهين–كما بينه صاحب كشف الظنون(١):

أحدهما: أن الزمخشري لم يكن لتفوته اللطائف المذكورة في: أنزل، وفي نزل، في مفتتح كلامه..

والثاني: أنه لم يكن يأنف من انتمائه إلى الاعتزال، وإنما كان يفتخر بذلك..

وقد سبقت الإشارة(٢) إلى أنه كان متعصبًا شديد التعصب لمذهبه الاعتزالي.

وبعيدًا عن ما أثاره ابن خَلِّكان وحتى لا يتفرع بنا الكلام نعود فنقرر – كما هو بيِّنٌ من حال الزمخشري– أن السبب الباعث له على تصنفيه للكتاب إجابته لرغبة أتباعه ومناصري مذهبه، وكان ذلك وحده كافيًا لأن يهتم في تفسيره ببيان ما يحتاجونه من مناصرة للمذهب واحتجاج له، وهذا أمرٌ في حد ذاته لا يُعاب فاعله ولا يُذم بسببه، إذا لم يخرج بالنص عن سياقه، ولم يحمله ما لا يراد منه، وقد أشرت قبلُ إلى أن هذا الصنيع –أعني التصنيف لنصرة المذهب– كان ديدن كثير من العلماء من أصحاب المذاهب والملل المختلفة.**هذا عن الزمخشري**.

فإذا رحنا ننظر في سبب إقبال ابن المنير على التعليق على الكشاف وجدناه قد نحا المنحى نفسه، وهو نصرة المذهب، وتأييد الأصحاب، وأن الانتصار لمذهب أهل السنة كان دافعه الأول.

ولنعرض شاهدًا دالاً على ذلك، ففي رده على الزمخشري حين عرَّض بأهل السنة في مسألة العفو عن صاحب الكبيرة قال: فانظر إليه كيف أشحن قلبه بغضًا

---

(١) كشف الظنون ١٤٨٢/٢.

(٢) تعرضت لذلك في ثنايا الحديث عن صلة الزمخشري بأهل السنة وموقفه منهم.

لأهل السنة وشقاقًا؟ وكيف ملأ الأرض من هذه النزغات نفاقًا؟ فالحمد لله الذي أهَّل عبيده الفقير إلى التورك عليه؛ لأن آخذ من أهل البدعة بثأر السنة، فأصمي أفئدتهم من قواطع البراهين بمقومات الأسنة(١).

ولنتأمل كيف صوَّر ابن المنير الخلاف بينهما وكأنهما في صراع ونزال، كلٌ يروج لمذهبه، ويحميه ويدافع عنه. وإنك لتزداد يقينا بهذه القاعدة حين تقرأ هذه السطور التي تباهى بها ابن المنير في حاشيته إذ قال في قوله تعالى: {**فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ**}التوبة: ١٢٢.

ولا أجد في تأخري عن حضور الغزاة عذرًا إلا صرف الهمة لتحذير هذا المصنف–يريد الكشاف– فإني تفقهت في أصل الدين وقواعد العقائد مؤيدًا بآيات الكتاب العزيز، مع ما اشتمل عليه من صيانة حوزتها من مكايد أهل البدع والأهواء، وأنا مع ذلك أرجو من الله حسن التوجه، بلغنا الله الخير، ووفقنا لما يرضيه، وجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم(٢).

لقد جعل انكبابه على تعقب الكشاف والتحذير مما فيه بمنزلة الجهاد في سبيل الله، وما صرفه عن الجهاد في ميدان المعركة إلا اشتغاله بمعركة أخرى مع الزمخشري، وبدهي أن تكون فكرة الانتصار للمذهب هي الغالبة في ثنايا النقد والتعليق على أقوال الزمخشري، حتى لو ألجأه ذلك إلى المبالغة والبعد عن القصد.

والخلاصة أن ابن المنير كان مبتغاه من عمله تتبع الزمخشري في زلاته، والكشف عن عوراته وسقطاته. وقد أبان ابن المنير عن منهجه وقصده في حاشيته فقال في التعقيب على الزمخشري: هذا الفصل من كلام الزمخشري جمع فيه بين الغث والسمين. ونحن ننبه على ما فيه من الزبد، ليتم للناظر أخذ ما فيه من

(١) الكشاف ٣٤٩/١.

(٢) السابق ٢/ ٣٢٢.

السنة، آمنًا من التورط في وضر البدعة، مستعينين بالله وهو خير معين(١) فمبتغاه إذن تتبع الزمخشري في هناته، والبحث عن زبده، والتنبيه عليه.

وقضى بأن المطالع لمقولات الزمخشري قد يزل قدمه لو قرأه بدون تعقيبات ابن المنير قال .... وما أسرع المطالع لهذا الفصل أن يمر على لسانه وقلبه ويستحسنه وهو غافل عما تحته ، لولا هذا التنبيه والإيقاظ(٢).

ولعل هذا يتفق مع ما قيل عن استخراج الاعتزاليات بالمناقيش، وأن تحت كل ذرة من كلماته اعتزالا، وإن كان فهذا برهان على ما بلغه جار الله من قوة في القريحة وبلاغة في البيان، لا يدركها إلا الحصفاء والبلغاء، وهذا مكمن الخطر في تفسيره.

(١) الكشاف ١/ ٥٦.

(٢) السابق ٢/ ٥٣٢.

المطلب الثاني

الزمخشري في مرآة ابن المنير

غلظته وقسوته:

أشرت قبل ذلك إلى أن الخلاف بين الفريقين قد دفع كل طرف إلى نقد الآخر، وبلغ الأمر إلى كيل الاتهامات والقدح والذم انتصارًا للمذهب ودفاعًا عنه.

ومن نافلة القول عن موقف ابن المنير من الزمخشري إنه كان ناقدًا قاسيًا في نقده، وهذا لا غرابة فيه؛ إذ المصنَف قائم على ذلك، مخصص لهذا الغرض، فابن المنير لم يترك فرصة يقدر فيها من النيل من الزمخشري إلا اهتبلها وشنَّ هجمات قاسية وأغلظ القول، ومن الإنصاف الإشارة إلى أن موقف ابن المنير كان في بعض الأحيان بمثابة رد على ما ابتدأ به الزمخشري من تطاول على أهل السنة.

الرد والنقد:

قلت: ليس من عجب في أن يكون النقد والرد لما أورده الزمخشري في تفسيره في المحل الأول من اهتمام ابن المنير؛ فقد جعل ذلك سبب تصنيفه الحاشية، لكن الذي أراه بعيدًا عن القبول هو خروج الخلاف إلى الاتهام والانتقاص، والسب والرمي بالفسوق، والوصم بالشرك والنفاق واتباع الهوى!

فهو مثلاً في تعقيبه على تفسير الزمخشري لقوله تعالى: {هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ} التغابن: ٢ بأن معناه: فمنكم آت بالكفر وفاعل له ومنكم آت بالإيمان ... الخ»

قال: لقد ركب عمياء، وخبط خبط عشواء، واقتحم وعرا: السالك فيه هالك، والغابر فيه عاثر، وإنما ينصب إلى مهاوي الأراك، ويحوم حول مراتع الإشراك،

ويبحث ولكن على حتفه بظلفه، ويتحذق وما هو إلا يتشدق، ويتحقق وما هو إلا يتفسق....(١).

فهذا انتقاص ورمي بالفسق، واتهام بالحوم حول الشرك، وهي مبالغة الأولى تركها.

وقد سبق ذكر ما قاله في سبب تصنيفه للحاشية، وفيه اتهام صريح وواضح بأن قلبه مملوء بالبغض، وأنه أفسد الأرض بنفاقه ومما قاله: فانظر إليه–يعني الزمخشري– كيف أشحن قلبه بغضًا لأهل السنة وشقاقًا؟، وكيف ملأ الأرض من هذه النزغات نفاقا؟، فالحمد لله الذي أهل عبيده الفقير إلى التورك عليه(٢).

وتعقبه في موطن آخر بقوله: هذا تعريض بخروج أهل السنة من ربقة الإسلام بل تصريح، وما ينقم منهم إلا أن صدقوا وعد الله عباده المكرمين على لسان نبيهم الكريم صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم بأنهم يرون ربهم كالقمر ليلة البدر لا يضامون في رؤيته، ولأنهم وحدوا الله حق توحيده فشهدوا أن لا اله إلا هو ولا خالق لهم ولأفعالهم إلا هو، واقتصروا على أن نسبوا لأنفسهم قدرة تقارن فعلهم لا خلق لها ولا تأثير غير التمييز بين أفعالهم الاختيارية والاضطرارية، وتلك المعبر عنها شرعا بالكسب في مثل قوله تعالى:{ **وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ**}الشورى: ٣٠ هذا إيمان القوم وتوحيدهم، لا كقوم يغيرون في وجه النصوص فيجحدون الرؤية التي يظهر أن جحدهم لها سبب في حرمانهم إياها. ويجعلون أنفسهم الخسيسة شريكة لله في مخلوقاته، فيزعمون أنهم يخلقون لأنفسهم ما شاءوا من الأفعال على خلاف مشيئة ربهم محادة ومعاندة لله في ملكه، ثم بعد ذلك يتسترون بتسمية أنفسهم أهل العدل والتوحيد، والله أعلم بمن اتقى. ولجبر خير من إشراك، إن كان أهل السنة مجبرة فأنا أول المجبرين.

---

(١) الكشاف: ٥٤٦/٤.

(٢) الكشاف: ٣٤٩/١.

ولو نظرت أيها الزمخشري بعين الانصاف إلى جهالة القدرية وضلالها، لانبعثت إلى حدائق السنة وظلالها، ولخرجت عن مزالق البدع ومزالها، ولكن كره الله انبعاثهم، ولعلمت أي الفريقين أحق بالأمن وأولى بالدخول في أولى العلم المقرونين في التوحيد بالملائكة المشرفين بعطفهم على اسم الله عز وجل. اللهم ألهمنا على اقتفاء السنة شكرك. ولا تؤمنا مكرك إنه لا يأمن من مكر الله إلا القوم الخاسرون، فليس ينجى من الخوف إلا الخوف. والله ولى التوفيق(١).

وتطرف ابن المنير –كما يصفه الذهبي(٢)– فاتهمه وأتباعه من أهل الاعتزال بوقوعهم في الشرك الخفي، وذلك في تعقبه على ما جاء في تفسيره لقوله تعالى: {قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ} يونس: ٣١ فقد قال ابن المنير: وهذه الآية كافحة لوجوه القدرية الزاعمين أن الأرزاق منقسمة، فمنها ما رزقه الله العبد وهو الحلال، ومنها ما رزقه العبد لنفسه وهو الحرام، وهذه الآية ناعية عليهم هذا الشرك الخفي لو سمعوا: {وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ} يونس: ٤٢(٣).

ووصفه باتباع الهوى المضل لصاحبه عن البصر بالحق ومعرفته فقال: الزمخشري استفزه الهوى حتى أنكر ما عرف، وما به إلا أن يتبع اعتزاله ويغطى بكفه وجه الغزالة(٤).

فنلحظ مما سبق أن الزمخشري في عين ابن المنير ضال متبع للهوي، متهم بالفسوق والنفاق، وبالبغض والشقاق، مما جعله وأتباعه أقرب إلى الشرك منهم للإيمان.

---

(١) الكشاف١/ ٣٤٥.

(٢) التفسير والمفسرون ٣٣٣/١.

(٣) الكشاف٢/ ٣٤٥.

(٤) السابق ٤/ ٨٢١.

فتأمل ما فعلته الخلافات المذهبية بينهما؟ وكيف أوقعت ابن المنير في ما سبقه إليه الزمخشري من الاتهام والرمي بالباطل والمبالغة في نصرة المذهب؟ إلى آخر هذه المبالغات المذمومة المرفوضة.

فإذا ما تركنا هذا القدح الصريح في ذات الزمخشري ومعتقده، ورحنا نفتش في جانب آخر من جوانب النقد القاسي نجد أن ابن المنير يصرف اهتمامه بما قاله الزمخشري ويصف كلامه بأنه خال من الأدب.

ففي جنوحه للقول بالتمثيل والتخييل في قوله تعالى: {وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} الحشر: ٢١ قال ابن المنير: وهذا مما تقدم إنكاري عليه فيه، أفلا كان يتأدب بأدب الآية: حيث سمى الله هذا مثلا ولم يقل: وتلك الخيالات نضربها للناس، ألهمنا الله حسن الأدب معه والله الموفق(١).

قال الذهبي مصورًا أثر هذا القول على الخلاف بينهما: وهذه الطريقة التي يعتمد عليها الزمخشري في تفسيره أعني طريقة الفروض المجازية، وحمل الكلام الذي يبدو غريباً في ظاهره، على أنه من قبيل التعبيرات التمثيلية أو التخيلية قد أثارت حفيظة خصمه السني ابن المنير الإسكندري عليه، فاتهمه بأشنع التهم في كثير من المواضع التي تحمل هذا الطابع، ونسبه الى قلة الأدب وعدم الذوق(٢).

وإذا كان الكلام عاريًا من الأدب فبالضرورة والتبعية لا يخلو صاحبه من الوصف بما وُصف به كلامُه.

وقد تكرر في الحاشية وصف الزمخشري بإساءة الأدب حتى بلغ به إلى استحقاق إقامة الحد عليه، كما في تعقبه في تفسيره لقوله تعالى:{ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ} القلم: ٣ قال الزمخشري: غَيْرَ مَمْنُونٍ غير مقطوع كقوله

(١) الكشاف٤/ ٥٠٩.

(٢) التفسير والمفسرون ٣١٧/١.

عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ أو غير ممنون عليك به، لأنه ثواب تستوجبه على عملك، وليس بتفضل ابتداء، وإنما تمنّ الفواضل لا الأجور على الأعمال.

أردفه ابن المنير بقوله: ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يرضى من الزمخشري بتفسير الآية هكذا. وهو صلى الله عليه وسلم يقول: لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة ولقد بلغ بالزمخشرى سوء الأدب إلى حد يوجب الحد، وحاصل قوله: أن الله لا منة له على أحد ولا فضل في دخول الجنة لأنه قام بواجب عليه، نعوذ بالله من الجرأة عليه(١).

وفي موطن آخر يقول عن بعض ألفاظ الزمخشري: سحقًا لها من لفظة؛ ما أسوأ أدبها مع الله تعالى(٢).

وقد بدا واضحاً خروج الخلاف من دائرة المسائل العلمية والخلاف في الرأي والاجتهاد إلى الخصومة الشخصية، والعصبية المذهبية.

ولكن السؤال: **هل التزم ابن المنير بتعقب السقطات والزلات، وتغافل عن الحسنات؟** بمعنى أنه إذا وجد ما يقدح أشاعه وأذاعه، وإذا وقف على ما يعجب ويطرب كتمه وتجاوزه.

ويبدو لكل ناظر في الحاشية أن الأمر لم يكن كذلك؛ فقد ملئت الحاشية بعبارات الثناء، وكلمات الإعجاب والإطراء، وهو ما نسعى لبيانه وكشفه في السطور الآتية:

---

(١) الكشاف ٥٨٥/٤ ولمراجعة الرواية انظر: صحيح البخاري كتاب المرض باب تمني المريض الموت ١٢١/٧ ط دار طوق النجاة ط الأولى ١٤٢٢هـ.

(٢) الكشاف٣/ ١١٠.

اللين والدعاء بالرحمة:

من المواقف التي تحسب لابن المنير: لين عبارته رغم مخالفته، فهو أحيانًا ما يشفع رده ومخالفته أو موافقته بطلب الدعاء والرحمة للزمخشري.

فمثلاً حين خالف الزمخشري في ما ارتآه من تعلق اسم الله تعالى بالقراءة في البسملة قال عن ما ذكره الزمخشري: حيد عن الحق المعتقد لأهل السنة في قاعدتين: إحداهما أن الاسم هو المسمى، والأخرى أن فعل العبد موجود بقدرة اللَّه تعالى لا غير ....

والزمخشري رحمه اللَّه لا يستطيع هذا التحقيق لاتباعه الهوى في مخالفة القاعدتين المذكورتين، فيعتقد أن اسم اللَّه تعالى الذي هو التسمية معتبر في شرعية الفعل لا في وجوده إذ وجوده على زعمه بقدرة العبد، فعلى ذلك بنى كلامه(١).

فانظر إليه يدعو له بالرحمة رغم وصفه له باتباع الهوى.

وقد يكرر الترحم عليه في موضع واحد، كما وقع عند تعرضه لتفسير الغضب من الله بين أهل السنة والمعتزلة فيقول: "قال الزمخشري رحمه اللَّه: الغضب من اللَّه تعالى إرادة الانتقام من العصاة ....".

ثم بعدها يكرر مرة أخرى بقوله: والغضب من اللَّه عند أهل السنة والمعتزلة: عبارة عما ذكره الزمخشري رحمه اللَّه، إلا أن عند أهل السنة أن اللَّه تعالى إن شاء عذب صاحب الكبيرة وإن شاء غفر له، وعند المعتزلة وجوب عذابه، فعند المعتزلة ظاهر أن الغضب عبارة عن إرادة الانتقام، وعند أهل السنة: إن غفر له فلا غضب، وإن لم يغفر له فغضبه عبارة عما ذكره(٢).

فقد بدا لين الجانب لطيف العبارة هنا في قضايا عقدية.

---

(١) السابق ١/ ٢٢٨.

(٢) الكشاف ١/ ١٧.

وفي جانب المسائل اللغوية تعقبه ابن المنير في كون آلم اسما معرباً مستشهدًا بنص عن سيبويه ثم قال: وفيه رد على الزمخشري رحمه الله في حتمه أن تكون معربة(١).

وقد يجمع بين الترحم عليه ونعت كلامه بأنه أحسن فيه وبلغ المراد.

وقد يُقال: أراك قد همَّك من الأقوال ظاهرها وشكلها لا بواطنها وعمقها، فوقع الاهتمام بقول ابن المنير عن الزمخشري: رحمه الله. وهذا لا شيء فيه!.

ولزوال هذا القيل ودفعًا لوهم إيراده على سبيل الحشو والإكثار أقول: إنما عمدت إلى تتبع ما قاله ابن المنير وترحمه على الزمخشري مع مخالفته له لأدلل على الشطط الذي ركبه بعض الغلاة(٢) في دعواهم عدم جواز الترحم على الزمخشري، وذهابهم إلى أنه حامل راية المعتزلة إلى النار! والدعاء عليه وأشياعه باللعنة! حتى وصل الأمر إلى السؤال عن جواز الترحم عليه أو لا؟(٣) وهذا من موروثات الخلافات المذهبية والعصبية الفكرية للآراء.

الاستحسان والمتابعة:

لم يمنع الخلاف ابن المنير من الإنصاف والثناء ووصف مقالة الزمخشري بالحسن، وهذا ما قرره ابن المنير في تعقيبه عليه في عدة مواطن من حاشيته.

فعلى عادة الزمخشري قال: إن قلت: لم كانت مخاطبتهم المؤمنين بالجملة الفعلية، وشياطينهم بالاسمية محققة بأن؟ قلت: ليس ما خاطبوا به المؤمنين جديراً

---

(١) السابق ١/ ٢٣.

(٢) الزواجر عن اقتراف الكبائر ابن حجر الهيتمي (١/ ١٦٦-١٦٧).

(٣) مما يدل على عظم هذا الأمر وبلوغ التعصب حد الخطر أن تراه مبثوثًا على الشبكة الدولية(الانترنت) في صورة سؤال حول جواز الترحم على الزمخشري! https://sh-albarrak.com/categories/81

بأقوى الكلامين وأوكدهما، لأنهم في ادّعاء حدوث الإيمان منهم ونشئه من قبلهم، لا في ادعاء أنهم أوحديون في الإيمان غير مشقوق فيه غبارهم، وذلك إما لأنّ أنفسهم لا تساعدهم عليه، إذ ليس لهم من عقائدهم باعث ومحرّك، وهكذا كل قول لم يصدر عن أريحية وصدق رغبة واعتقاد. وإما لأنه لا يروج عنهم لو قالوه على لفظ التوكيد والمبالغة. وكيف يقولونه ويطمعون في رواجه وهم بين ظهراني المهاجرين والأنصار الذين مثلهم في التوراة والإنجيل.

ألا ترى إلى حكاية الله قول المؤمنين: {**ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ** }آل عمران: ١٦. وأما مخاطبة إخوانهم، فهم فيما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اليهودية والقرار على اعتقاد الكفر، والبعد من أن يزلوا عنه على صدق رغبة ووفور نشاط وارتياح للتكلم به، وما قالوه من ذلك فهو رائج عنهم متقبل منهم، فكان مظنة للتحقيق ومئنة للتوكيد.

علق عليه ابن المنير في الحاشية بقوله: لقد أحسن الزمخشري رحمه الله في تقريره ما شاء وأجمل ما أراد(١).

وزاد الثناء والوصف بالإحسان، ووصفه بأن له حسنات عديدة، يُعد منها موضع الإحسان المذكور في تفسيره لآية الصيام في سورة البقرة .

فقال ابن المنير في الحاشية: لقد أحسن الزمخشري في التنقيب عنه فهو منظوم في سلك حسناته(٢).

واستحسن ما علل به الزمخشري في تفسيره لتسمية ظفر المسلمين فتحاً، وظفر الكافرين نصيبا في قوله تعالى: { **ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ** } النساء: ١٤١حيث مارس الزمخشري طريقته التي اشتهر بها والمعروفة

(١) الكشاف ١/ ٦٦.

(٢) السابق ١/ ٢٢٨.

بالفنقلات (فإن قلتَ ...قلتُ) فقال: فإن قلت: لم سمى ظفر المسلمين فتحاً، وظفر الكافرين نصيبا؟

قلت: تعظيما لشأن المسلمين وتخسيساً لحظ الكافرين لأن ظفر المسلمين أمر عظيم تفتح لهم أبواب السماء حتى ينزل على أوليائه. وأمّا ظفر الكافرين، فما هو إلا حظ دنىّ ولمظة من الدنيا يصيبونها وقد استحسن هذا ابن المنير فتعقبه بعد إيراده لنصه بقوله: قال أحمد: وهذا من محاسن نكت أسرار القرآن(١).

وقد يثني على الزمخشري إذا خالف معتقد أصحابه ولم يوافقهم في مسألة من المسائل المعتمدة في المذهب، كما في مسألة عذاب القبر، حيث يقول ابن المنير معقبًا: ...ولقد أحسن الزمخشري في مخالفة أصحابه في هذه العقيدة، فإنهم يجحدون عذاب القبر، وها هو قد اعترف به، والله الموفق(٢).

ولما بين الزمخشري حكمة استخدام القرآن للأفول دون البزوغ في محاجة إبراهيم مع قومه بقوله: فإن قلت: لم احتج عليهم بالأفول دون البزوغ، وكلاهما انتقال من حال إلى حال؟ قلت: الاحتجاج بالأفول أظهر، لأنه انتقال مع خفاء واحتجاب.

هنا يسارع أحمد بن المنير في الحاشية ليوفيه حقه بقوله: وهذه أيضاً من عيون نكته ووجوه حسناته(٣).

وحين يبدع الزمخشري بعد نقد له واعتراض عليه من قبل ابن المنير يقول: ومثل هذا التنبيه من حسناته، ولولا أن السيئة التي قبلها تتعلق بالعقيدة لتلوت: إن الحسنات يذهبن السيئات، والله أعلم(٤).

---

(١) ١/٥٧٨.

(٢) ١/ ٤٤٩.

(٣) ٢/ ٤١.

(٤) ٣/ ١٠٧.

ويقول عنه في براعته في رد أعجاز الكلام إلى صدوره: لقد أحسن الزمخشري في التنقيب عنه فهو منظوم في سلك حسناته(١).

وأقر بامتلاكه ناصية البيان، وأنه فيه هذا الباب لا يبارى فوصفه بقوله: وهذا من محاسن نكتة الدالة على أنه كان مليًا بالحذاقة في علم البيان(٢).

وهذه بعض عبارات وتعليقات ابن المنير على الزمخشري في الحاشية أضعها بين يديك دون تعقيب. يقول: "وهذا الفصل من حسناته التي لا يدافع عنها"(٣). لقد أحسن في التنبيه على هذا السر الخفي(٤).

ما أحسن تأكيد الزمخشري لاستدلاله ببعث الملائكة المعنيين بأنهم المقربون(٥).

ما أحسن قول الزمخشري في يوم إقامتكم: أن المراد خفة ضربها وسهولة ذلك عليهم، والله أعلم(٦)

لقد أحسن في تقوية هذا المعنى في هذه الآية(٧)

لقد أحسن الفهم والتفطن لأسرار هذا القول(٨)

ولا شك أن حِرصْ ابن المنير على إثبات رأيه في لفتات الزمخشري دليل على إعجابه وافتتانه بما استنبط، وصنيعه خير شاهد على إنصافه الرجل وإعطائه حقه ولو كانا مختلفين.

---

(١) ١/٢٢٨.
(٢) ٢/ ٤٢٣.
(٣) ٢/ ٦١٠.
(٤) ١/٦٠٦.
(٥) ١/ ٥٩٤.
(٦) ٢/ ٦٢٥.
(٧) ٤/ ١١٨.
(٨) ٤/ ١٦٢.

الإشارة إلى التنبيهات واللطائف:

كثيرًا ما كان ابن المنير يعجب بلطائف وتنبيهات الزمخشري، شأنه في ذلك شأن غيره ممن يعرفون للزمخشري قدره وقدرته على استنباط المعاني، واستخراج اللطائف.

فعندما قال الزمخشري في قوله: { إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ} (طه: ١١٨ - ١١٩) الشبع والرىّ والكسوة والكنّ: هي الأقطاب التي يدور عليها كفاف الإنسان، فذكره استجماعها له في الجنة، وأنه مكفى لا يحتاج إلى كفاية كاف ولا إلى كسب كاسب كما يحتاج إلى ذلك أهل الدنيا.

أردفه أحمد بن المنير في الحاشية بقوله: تنبيه حسن. وفي الآية سر بديع من البلاغة يسمى قطع النظير عن النظير.

وفي فاتحة سورة الدخان قال الزمخشري: أقسم بالكتاب المبين وهو القرآن وجعل قوله: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ} جوابًا للقسم وهو من الأيمان الحسنة البديعة، لتناسب القسم والمقسم عليه، وكونهما من واد واحد. وصف ابن المنير هذا الاستنباط بأنه تنبيه حسن جدا(١).

أما في قوله: {وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ} (يونس: ١١) فسره الزمخشري بقوله: أصله وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ تعجيله لهم الخير، فوضع اسْتِعْجالَهُمْ بِالْخَيْرِ موضع تعجيله لهم الخير إشعاراً بسرعة إجابته لهم وإسعافه بطلبتهم، حتى كأنّ استعجالهم بالخير تعجيل لهم.

(١) ٤/ ٢٣٦.

وقد أعجب ابن المنير هذا الاستنباط، واستحسن هذه اللفتة فأعقبه بقوله: وهذا أيضاً من تنبيهات الزمخشري الحسنة التي تقوم على دقة نظره شاهدة وبينة(١).

وكرر الإعجاب بمحاسن التنبيهات في قوله تعالى:{ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ} (الأنعام: ٨) في سورة الأنعام حيث قال الزمخشري: ومعنى ثُمَّ بعد ما بين الأمرين: قضاء الأمر، وعدم الإنظار. جعل عدم الإنظار أشدّ من قضاء الأمر، لأنّ مفاجأة الشدّة أشدّ من نفس الشدّة. قال أحمد: وهذه النكتة من محاسن تنبيهاته(٢).

وقد تكرر في الحاشية الإشارة ما عند الزمخشري من تنبيهات ولطائف ونكات كقوله: وهذا من تنبيهاته الحسنة(٣). تنبيه حسن جدا(٤). والذي قرره الزمخشري لا يرد عليه هذا الإشكال، وهو حسن جداً (٥). هذا الفصل بجملته حسن جداً(٦). وهذا أيضا تأويل حسن(٧) ينظم بين القراءتين.. نص حسن(٨)، كلام حسن(٩) ، جواب حسن عن سؤال مقدر(١٠)، معنى حسن(١١).

---

(١) ٢/ ٣٣٢.
(٢) ٢/ ٧.
(٣) ٢/ ٢٧٦.
(٤)٤/ ٢٣٥.
(٥) ١/ ٣٦٣.
(٦) ١/ ٤٦٩.
(٧) ٢/ ٥١٠.
(٨) ٢/ ٦٥٤.
(٩) ٢/ ٦٦٥.
(١٠) ٢/ ٦٩٤.
(١١) ٤/ ٢٢٩.

وأقر بنفاسة الكلام وعلو كعب قائله في البلاغة فقال في بعض تعليقاته: كلام نفيس لا مزيد عليه(١).

بلوغ الغاية في الإعجاب والإنصاف:

لقد بلغ ابن المنير مبلغًا عاليًا من الإنصاف والإعجاب، فتراه يطرب لما وقف عليه من كلام الزمخشري، ولا يملك إلا أن يصدح بالحق، ويصرخ من أعماق قلبه بالإعجاب.

وتأمل هذه العبارات، وهي عبارات واردة في التعقيب على الزمخشري: "لقد أحسن فيه كل الإحسان"(٢)، "كلام نفيس يستحق أن يكتب بذوب التبر لا بالحبر"(٣).

وأوقفك هنا على هذه العبارات التي تشع إنصافًا وإعجابًا: "قال أحمد: وهذا تفسير مهذب وافتنان مستعذب، رددته على سمعي فزاد رونقا بالترديد، واستعاذه الخاطر كأني بطيء الفهم حين يفيد...(٤).

وبعد: فهذا هو الزمخشري بين يدي ابن المنير: كلامه حسن، ولطائفه وتنبهاته لا نظير لها، ومعانيه التي فسر بها كتاب الله بلغت الغاية في الإعجاب والإطراء، مما يدل على أن الزمخشري قيض له الله المخالف والموافق لنصرته وإنصافه، وهذا عنوان صدقه وبرهان إخلاصه والله أعلم.

وحُقَّ لابن المنير أن يعلن ويتمنى ونحن معه: ليت الزمخشري لم يتحدث في تفسير القرآن إلا من حيث علم البيان، فانه فيه أفرس الفرسان، لا يجارى في ميدانه ولا يماري في بيانه(١).

---

(١) ٤/٢٤٧.
(٢) ٤/٥٨١.
(٣) ٣/٤٧٦.
(٤) ٣/٥٨١.

ولو صح ما قيل إنه تراجع عن تعصبه وانتصاره لمذهب أهل الاعتزال وتوبته منه، وإقراره بمذهب أهل السنة، قلت لو صح ذلك لما كان لكل هذه الحملات فائدة. على أن تتابع الحملات على الزمخشري وكشافه، وتعاقب أعلام أهل السنة على تتبع زلاته ليشير إلى بطلان القول بتوبته ورجوعه قبيل وفاته عن مذهب أهل الاعتزال.

وأخيرًا نردد مع الزمخشري قوله[٢]:

يا من يرى مد البعوض جناحها ∴ في ظلمة الليل البهيم الأليل

ويرى مناط عروقها في نحرها ∴ والمخ في تلك العظام النحل

اغفر لعبد تاب عن فرطاته ∴ ما كان منه في الزمان الأول

(١) ١/٦٥٥.

(٢) الكشاف ١/١١٦، وقيل إنه أوصى بكتابتها على قبره(وفيات الأعيان ٥/١٧٣).

الخاتمة

أثبت هنا أهم ما توصل إليه البحث من نتائج وتوصيات:

- ❖ كان للخلافات المذهبية أثر واضح في ثقافة المفسر وطريقة تأويله للآيات.
- ❖ للزمخشري صلة وثيقة بأهل السنة؛ فقد تربى على مائدة السني عبد القاهر الجرجاني، وأفاد من فكره وعلمه، كما كان له أثره، فقد استمد كل مَن جاء بعده من المفسِّرين من بحره الزاخر، وارتشف من معينه الفيَّاض.
- ❖ رغم ما وقع من خلاف بين الزمخشري ومناوئيه إلا أنه سيظل مصدرًا مهمًا من مصادرهم في التفسير، ينقلون منه، ويتعلمون من آرائه، أقروا بذلك علانية أو ضمنًا، مما يؤكد ريادته عند من خالف ومن وافق.
- ❖ تميز ابن المنير بالجمع بين الإنصاف والنقد، فلم يمنعه مخالفته للزمخشري وتصيده لزلاته من الإقرار والإعجاب، وحشد عبارات الثناء له ولما قاله.
- ❖ لم تقف جوانب الإنصاف عند ما برع فيه الزمخشري من كشف واستنباط بياني ولغوي؛ فقد أنصفه مخالفوه في مسائل اعتقادية رجع عنها أو فسرها وفق رؤيتهم.
- ❖ حظي الزمخشري بحملة نقد قلَّ نظيرها، ولا يزال انتقاده والتحذير من مصنفه حتى العصر الحاضر، وهذا النقد لم يكن موجهًا لتفسيره فحسب، بل انتقل إلى شخصه وذاته، حتى بلغ التعصب عند بعض الأقدمين إلى جعله زعيم أهل النار، وبدت آثار هذا التعصب لدى بعض المحدثين في مناقشة جواز الترحم على الزمخشري من عدمه.
- ❖ بحاشية ابن المنير من عبارات الثناء والمدح ما لو فصلت وحدها عن بقية الكتاب وقرأها قارئ لجزم بمتابعة ابن المنير للزمخشري، وعده من أخلص

أتباع الزمخشري، وأقرب تلاميذه؛ وذلك من كثرة إعجابه واستحسانه، ومبالغته الصريحة في الثناء والإطراء.

- ❖ وانتهى البحث إلى ضرورة العناية بجوانب الإنصاف عند المفسرين القدماء، وإبرازها جنبًا إلى جنب مع وجه الخلاف، كما يوصي البحث نبذ التعصب المذهبي لما له من آثار غير محمودة في الفكر والسلوك.

قائمة المراجع والمصادر

القرآن الكريم جل من أنزله.

١- **الإتقان في علوم القرآن** للسيوطي ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م

٢- **الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير** للذهبي ط مكتبة السنة ط الرابعة بدون.

٣- **أمالي المحاملي:** رواية ابن يحيى البيع- للحافظ الحسين بن إسماعيل المحاملي ط المكتبة الإسلامية دار ابن القيم -عمان - الأردن الدمام الطبعة الأولى ١٤١٢هـ

٤- **البحر المحيط في التفسير** لأبي حيان الأندلسي ط دار الكتب العلمية – لبنان/ بيروت – ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م.

٥- **البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري** نشر مكتبة وهبة ط الثانية ١٤٠٨هـ . ١٩٨٨م.

٦- **البلاغة تطور وتاريخ**. د. شوقي ضيف. ط: دار المعارف، ط: التاسعة، بتصرف يسير.

٧- **تذكرة الحفاظ للذهبي،** ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط الأولى ١٤١٩هـ .١٩٩٨م.

٨- **تفسير القرآن الحكيم** (تفسير المنار) لمحمد رشيد رضا ط الهيئة المصرية العامة للكتاب١٩٩٠م.

٩- **تفسير القرآن العظيم للحافظ** ابن كثير ط دار الكتب العلمية بيروت الطبعة: الأولى – ١٤١٩ هـ

١٠- **التفسير والمفسرون**. محمد حسين الذهبي، مكتبة وهبة القاهرة.

١١- **التفسير ورجاله** للطاهر بن عاشور ط مجمع البحوث الإسلامية.

١٢- **حاشية العلامة سعد التفتازاني** على الكشاف للزمخشري د. عبد الفتاح البربري رسالة دكتوراة كلية اللغة العربية جامعة الأزهر ١٣٩٨هـ -١٩٧٨م)

١٣- **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة.** جلال الدين السيوطي ط: دار إحياء الكتب العربية – عيسى البابي الحلبي وشركاه – مصر الطبعة الأولى ١٣٨٧ هـ – ١٩٦٧ م)

١٤- الدر المنثور لجلال الدين السيوطي ط دار الفكر – بيروت.

١٥- **الزواجر عن اقتراف الكبائر** ابن حجر الهيتمي الناشر: دار الفكر الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م

١٦- **سير أعلام النبلاء** لشمس الدين الذهبي ط مؤسسة الرسالة الطبعة الثالثة ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م.

١٧- **شذرات الذهب في أخبار من ذهب** لابن العماد الحنبلي ط دار ابن كثير، دمشق – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦ م.

١٨- **صحيح البخاري** ط دار طوق النجاة ط الأولى ١٤٢٢هـ.

١٩- **صحيح مسلم.** ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط الأولى ١٤١٢هـ .١٩٩١م، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

٢٠- **العلم الشامخ في إيثار الحق** على الآباء والمشايخ للمقبلي بدون.

٢١- **فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب** (حاشية الطيبي على الكشاف) ط دبي لأولى، ١٤٣٤ هـ – ٢٠١٣ م

٢٢- **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل** في وجوه التأويل الزمخشري ط دار الكتاب العربي بيروت الطبعة الثالثة – ١٤٠٧.

٢٣- **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون** لحاجي خليفة ط مكتبة المثنى – بغداد ١٩٤١م.

٢٤- **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير** للفيومي ط المكتبة العلمية

بيروت.

٢٥- **معيد النعم ومبيد النقم** لتاج الدين السبكي ط مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت – لبنان ط الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م

٢٦- **مفاتيح الغيب** أو التفسير الكبير للفخر الرازي ط دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة الثالثة – ١٤٢٠ هـ

٢٧- **مقدمة ابن خلدون** ط دار الفكر، ط الأولى ١٤٠١هـ .١٩٨١م.

٢٨- **مناقب الإمام الشافعي** لفخر الدين الرازي تحقيق أحمد حجازي السقا مكتبة الكليات الأزهرية ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م

٢٩- **منهج الزمخشري في تفسير القرآن** وبيان إعجازه. د. مصطفى الصاوي الجويني، ط دار المعارف ط: الثانية، بدون.

٣٠- **نواهد الأبكار وشوارد الأفكار** المعروف بحاشية السيوطي على تفسير البيضاوي لجلال الدين السيوطي ط: جامعة أم القرى بالسعودية١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٥ م.

٣١- **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان** لابن خلكان، حققه إحسان عباس، ط دار صادر بيروت ١٣٩٧هـ- ١٩٧٧م.

فهـرس المـوضـوعـات

م	الموضوع	الصفحة
١-	**ملخص البحث** :.....	٤٥
٢-	**المقـدمــة** :.....	٤٧
٣-	**المبحث الأول** **بين الزمخشري ومخالفيه**	٥٠
٤-	**المطلب الأول:** صلة الزمخشري بأهل السنة وموقفه منهم.	٥١
٥-	**المطلب الثاني:** الزمخشري وكشافه في عيون مخالفيه من علماء أهل السنة :.....	٥٨
٦-	**المبحث الثاني** **بين ابن المنير والزمخشري**	٧٤
٧-	**المطلب الأول:** وقفات مع مخالفة ابن المنير للزمخشري	٧٥
٨-	**المطلب الثاني:** الزمخشري في مرآة ابن المنير :.....	٨٠
٩-	**الخـاتمة** :.....	٩٤
١٠-	**فهرس المصادر والمراجع** :.....	٩٦
١١-	**فهرس الموضوعات** :.....	٩٩